آياتها	سورة البقرة	ترتيبها
٢٨٦	مدنية(*)	٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ تقرأ مُقَطَّعة: ألفْ. لامْ. ميمْ. تعددت أقوال المفسرين فيها، فمنهم من لم يجد فيها نصوصًا قرآنية أو أحاديث صحيحة تبينها، فرفض الخوض فيها، وقال محمد عبده: [نفوض الأمر فيها إلى المُسَمَّى (الله) سبحانه وتعالى، ويسعنا فى ذلك ما صنع الصحابة، وليس من الدين فى شىء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التى قلما يسلم مخترعها من الزلل]، بينما قال أبو زهرة: [أولاً: السور التى صُدِّرت بها هذه الأحرف سور مكية ما عدا ثلاث مدنية: البقرة، وآل عمران، والرعد، . . . . ثالثًا: عدد الأحرف التى ابتدئت بها السور أربعة عشر حرفًا، وهى نصف الحروف الهجائية، وهى تشتمل على أنواع مخارج الحروف المختلفة، وهذه الحروف هى: الألف، واللام، والميم، والصاد، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والراء، والسين، والطاء، والحاء، والقاف، والنون]، وقال الزمخشرى: [. . . ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر (حرفًا) وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها: . . . .، ومن المجهورة نصفها: . . . .، ومن الشديدة نصفها: . . . .، ومن الرخوة نصفها: . . . .، ومن المطبقة نصفها: . . . .، ومن المنفتحة

(١) سورة مدنية، أى نزلت بعد الهجرة، وهى أطول سور القرآن.

نصفها: . . . ، ومن المستعلية نصفها: . . . ، ومن المنخفضة نصفها: . . . ، ومن حروف القلقلة نصفها: . . . .][1]، وقال مخلوف: [. . . المختار فيها ـ كما ذكره الجلال (السيوطى) فى الإتقان (فى علوم القرآن) أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى]، وقال آخرون إنها رموز لأسماء الجلالة، وقيل غير ذلك، والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ هذا القرآن لا شك فى أنه كلام الله لهداية المتقين الذين من صفاتهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يؤمنون بما غاب عن أعينهم ومداركهم الحسية، كالله والملائكة والوحى والرسل والبعث ليوم الحساب ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يحرصون على أداء الصلاة فى أوقاتها وإتمام أركانها، وتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، وتذكرهم بالله فيعملون على التقرب إليه بالأعمال الصالحة ـ كما جاء فى سورة العنكبوت ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ـ وينفقون أموالهم فى سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يؤمنون بالوحى الذى أنزل الله إليك، وجُله فى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة والزبور والإنجيل والكتب التى أشار إليها القرآن ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ متأكدون من البعث والحساب ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ أولئك هم المؤمنون الذين هداهم ربهم إلى الصراط المستقيم، وهذا هو الفلاح.

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ كَفَرَ تعنى فى اللغة غطى وستر، وتعنى فى الشرع عكس ما يعنى الإيمان، فالكفر هو إنكار الألوهية أو الربوبية،

---

(١) الحروف المهموسة: جمعت فى (سكت فحثه شخص) وسميت مهموسة؛ لأن الهمس هو الصوت الخفى الضعيف ـ الحروف المجهورة: مأخوذة من الجهر وإعلاء الصوت، وسميت مجهورة؛ لأن الجهر فى اللغة الإظهار، والحروف المجهورةُ يخرج صوتها من الصدر ويجرى فى الحلق، وهى أوضح فى نطقها من المهموسة، وهى ما عدا حروف الهمس ـ الحروف الشديدة: وسميت بذلك لشدة وثقل مخرجها، وهى ثمانية جمعت فى قوله (أجد قط بكت) ـ الحروف الرخوة: وسميت بذلك لأنها تلين عند النطق بها ـ حروف الإطباق: والإطباق هو إلصاق اللسان بالجانب الداخلى الأعلى للفم عند النطق بالحرف، وهى أربعة أحرف (ط، ظ، ص، ض) ـ الحروف المنفتحة: وهى ما عدا حروف الإطباق، وسميت بالمنفتحة لأن اللسان لا ينطبق عند النطق بها ـ حروف الاستعلاء: سميت مستعلية؛ لأن اللسان يعلو عند النطق بها، وهى سبعة أحرف يجمعها قولك: «خُصَّ ضَغْط قظ» ـ حروف القلقلة: وهى خمسة أحرف يجمعها قولك: «قطب جد»، وسميت بذلك؛ لظهور صوت يشبه النبرة عند سكونها.

أو يوم الحساب، أو الملائكة، أو الكتب السماوية أو الأنبياء، وقد يعنى جحود العشرة وما يشوه الإيمان ولكن لا يُبطله، ويتبين المعنى المقصود بالقرائن فى النص. ومعنى الآية أن هناك من الكفار من لن يؤمنوا، مهما أنذرهم الرسول (ﷺ)، فقد ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ عطَّل الله فطراتهم ومداركهم العقلية وأسماعهم وأبصارهم، لماذا؟ لأنهم تكبروا وجحدوا، ولم يستخدموا الآليات التى منحها الله لهم ليقوموا بتكاليف الخلافة، بل تحدوا دعوة الحق قائلين: قلوبنا غلف (لا تتقبل الدعوة)، وقالوا: فى آذاننا وقر (ثقل يمنعنا من السماع) ـ أولئك الذين قال فيهم الله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾ [الليل]، وقال عنهم ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

* * *

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

هذه الآيات تتحدث عن المنافقين ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ وهكذا دائمًا المنافقون يظهرون غير ما يبطنون، يدَّعون بأفواههم الإيمان، وقلوبهم تنكر وتأبى ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ يظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين، والحقيقة أنهم يخدعون أنفسهم ﴿ فِي قُلُوبِهِم

﴿مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ النفاق مرض فى النفوس، التى تبطن الجحود وتظهر الإيمان، فيزيدها الله مرضًا ـ كما جاء فى الآية ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ـ ولهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ كلما حاول البعض تذكيرهم بألا ينافقوا؛ لأن هذا فساد فى الأرض، ردوا قائلين إنما نحن مصلحون، ويرد عليهم الله المطلع على قلوبهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ إنهم هم المفسدون فى الأرض، ولكن لتعنت قلوبهم لا يدركون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ إن الكبر والغرور الذى يملأ قلوبهم يجعلهم كلما دُعُوا إلى الإيمان بالله ورسوله (ﷺ) ـ كما آمن عامة الناس ـ يرون أنفسهم أعلى منزلة من الناس، فيرفضون الإيمان برمته حتى لا يتشبهوا بالسفهاء، والله يرد عليهم قائلاً: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهم لغرورهم لا يدركون أنهم لا يعلمون ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ وجهان؛ هو حال المنافقين دائمًا، فإذا التقوا بالمؤمنين قالوا لهم نحن معكم فى الإيمان، وإذا اجتمعوا بأصحابهم من شياطين الإنس قالوا إنما نقول هذا استخفافًا بالمؤمنين واستهزاءً ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ إن الذى يستهزئ بهم حقًا هو الله؛ لذلك يمدّ ويملى لهم ليزدادوا طغيانًا، فلا يبصروا الحق فيحتاروا، والعمه فى البصيرة كالعمى فى الإبصار، ومعناه التردد والحيرة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ هؤلاء المنافقون باعوا الهدى واشتروا الضلالة، فبئست تجارتهم الخاسرة ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ مثل هؤلاء المنافقين، عندما يزعمون أنهم مؤمنون، كمن أوقد نارًا ليتنفع بها ومن معه، فلما أضاءت ما حوله عند ركونه المؤقت للإيمان، وبخداعه من صدَّق إيمانه، أخذ الله نور أعينهم، وتركهم فى ظلمات لا تمكنهم من الإبصار ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿صُمٌّ﴾ عن الحق ﴿بُكْمٌ﴾ خرس لا ينطقون بالحق ﴿عُمْيٌ﴾ عن طريق الهداية ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ الصيب هو المطر، فحال هؤلاء المنافقين كمن ينزل عليه المطر الذى يمثل هدى الله، مصحوبًا بالظلمة والرعد والبرق، ويرى محمد عبده هذا الفريق أفضل قليلاً من فريق المنافقين السابق لأن فيهم بقية رجاء، وأوَّل الظلمات بأنها ظلمات التقاليد والاحتفال (أى اتباع) بالرؤساء، وأوَّل

الرعد بأنه الحق من ربهم الذى يقرع أسماعهم ويبين فسادهم، وأوّل البرق الذى يخطف أبصارهم بمن يدعوهم إلى أصل الدين، وقال [ويوضح لهم سبب ما هم فيه من البلاء المبين، ويقيم لهم الحجج القيمة على أنهم تنكبوا الصراط السوى. . يُظهر الحق فيعزمون على اتباعه وتسير أفكارهم فى نوره بعض خطوات، ولكن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشهوات وغبسة (ظلمة) الأهواء والشهوات]، والله محيط بهم، ولا يقدرون على الهروب من ملكه وحكمته وأحكامه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ ولو أراد الله لأبطل أسماعهم وأبصارهم التى منحها لهم فأساءوا الاستفادة منها، فهو على كل شىء قدير.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾

وبعد أن استعرض القرآن حال المؤمنين، والكفار، والمنافقين، خاطب الناس جميعًا فأمرهم بعبادة ربهم[1]، وذلك بإتيان أوامره واجتناب نواهيه، لعلهم يصلون لمرتبة المتقين. ثم تذكرنا الآيات بنعم الله علينا؛ إذ سخر لنا الأرض وجعلها فراشًا، أى بساطًا، والسماء تحفظنا من فوقنا، وأنزل المطر الذى يروى النبات رزقًا للعباد، فكيف بعد كل هذا نجعل للخالق شريكًا فى الألوهية أو الربوبية؟! وإن كنتم فى شك من القرآن الذى أنزلناه على محمد فاجمعوا آلهتكم وأعوانكم وحاولوا أن تؤلفوا سورة واحدة مثل كلام الله، إن كنتم صادقين! فإن عجزتم، وسوف تعجزون، فأولى بكم أن تؤمنوا به؛ لتتقوا نار جهنم التى وقودها الناسُ

(١) استخدمت الآية كلمة ﴿رَبَّ﴾ وليس ﴿اللهُ﴾ لتؤكد للعرب وغيرهم أن الله خلق الكون والبشر لهدف مثلما بينت الآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]، وأنه لم ينسحب من الكون كصانع الساعة الذى تركها تعمل بعد إتمام صنعته، بل هو مع كل دابة يرزقها، ويأويها، ويعمل على هداية كل مخلوق، يريه آياته ويرشده للحق ويحذره من الباطل، عليم سميع بصير بكل ما تعمله الأبدان ويعتمل فى القلوب، حسيب ومجاز على كل قول وعمل.

والحجارة التى تصنعون من مثلها الأصنام، أعدها الله ربكم للكافرين ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ دائمًا أبدًا يقرن القرآن بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ كلما ذاقوا من ثمرات الجنة تذكروا أن الله وعدهم بها فى حياتهم الدنيا إن آمنوا وعملوا الصالحات، وقد جاء فى الصحيحين: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كما سيرزقون بالأزواج الطاهرات من عيوب البشر فى الدنيا، وسيبقون فى هذه الجنة أبد الآبدين.

* * *

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾

إن الله ـ تعالى ـ لا يستحيى أن يضرب الأمثال بأىٍّ من مخلوقاته كبر أم صغر، فكلها هينة عليه فى الخلق، وجميعها تسبّح له، ولقد كان الجاحدون يتربصون بحثًا عما يسخرون به مما ينزل على محمد (ﷺ)، لذلك كانوا إذا ما ذكر البعوض، أو الذباب، أو العنكبوت، وهى أمٌ أمثالنا، يقول المنافقون: إن الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فعلى نقيض الجاحدين، علم المؤمنون أن هذا المثل حق من عند الله ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ يستنكر الكفار المثل، وقال الزمخشرى: [. . الكفار غلبهم الجهل على عقولهم، وغصبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم، أو عرفوا أنه الحق إلا أن حب الرئاسة وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا، فإذا سمعوه عاندوا وكابروا وقضوا عليه بالبطلان وقابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين فى غيهم وضلالهم، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك (ضرب الأمثال بالحيوانات) وهذه أمثال العرب بين أيديهم فى حواضرهم وباديهم، فقالوا: أجمع من ذرّة (يجمع أكثر مما يجمع النمل)، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد (القراد حشرة يقال إنها تسمع سير الإبل من مسافات بعيدة)، وأصرد من جرادة (لدقة إحساسها

بالبرد)، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وقالوا في البعوضة: أضعف من بعوضة، وأعز من مخ البعوض، وكلفتني مخ البعوض] وتعلق الآية على قولهم بأن ذلك المثل لا يُضل إلا الخارجين عن طاعة الله ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾ ينقضون عهد الله الذى أخذه عليهم ـ كما تبين الآية [١٧٢] من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ ومن ينقض عهد الله ينقض غيره، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل، ويتخلى عن التكليف الإلهى، فيمارس أنواع الفساد المتعددة، إلا أن يمنعه قانون أو عرف وتقليد إنسانى، قد يكون حقًا وقد يكون باطلاً، وأولئك هم الخاسرون بموازين الحق الإلهى.

* * *

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

سؤال للتعجب من جحود الإنسان ونكرانه ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ عدمًا ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بخلقكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بانتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور والبعث للحساب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ حيث لا مفر من الرجوع إلى الله. واستدلال آخر لقبح جحودهم ونكرانهم نعم الله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ تُذكِّر آيات متعددة الناس أن الله سخر لهم ما فى السموات والأرض، وسيجىء فى الآية التالية أن الله كرم الإنسان بجعله خليفته على الأرض، فكيف يكفر؟ وتختتم الآية ببيان أن الله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فى رحلة فكرية على امتداد نزول القرآن لأكثر من عشرين سنة، لتزيل الضلالات والصور الشوهاء عن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ التى سادت وقت نزول القرآن، ومن قبله، بل وحتى اليوم.

فأكثر آسيا حتى اليوم تعتقد فى تعدد الآلهة، أو الشركاء، وذلك فى أكبر ديانتين فيها: البوذية والهندوسية، وساد فى فارس القديمة وما حولها مفهوم الإلهين: إله النور وإله الظلام، أو إله الخير وإله الشر، وملأت الأصنام والأوثان حياة العرب الدينية، والكعبة، وتحدث كتبة العهد القديم من الكتاب المقدس عن إله يمشى فى الجنة، ويخاف أن يصبح آدم مثله، وينزل إلى بابل ليبلبل ألسنة الناس حتى لا يتحدوا ضده، ويصارع يعقوب (عليه السلام) فلا

يقدر عليه، فيطلب منه أن يفك اشتباكه معه، ويسميه إسرائيل لأنه جاهد مع الله، ويتحدث أحبار اليهود عن ندم الله عن عقابه لبنى إسرائيل، بل ويقول بعضهم إنه بكى (سبحانه) على ذلك[1]، ثم يتحدث كتبة العهد الجديد من الكتاب المقدس عن تجسد الله فى عيسى (ﷺ)، وتعرضه للإهانة والضرب والمحاكمة، ثم الصلب، ويتحدث القسس عن أم الله، وأخى الله، وأن الله فوض الكنيسة فى التحليل والتحريم، وطرد الناس من الكنيسة، ومن الجنة إلى الجحيم، والعكس. بل تجد إشارات عند بعض الأحبار والقسس لما يشبه علاقة زواج بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وشعبه المختار[2].

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾

هـذه هى قصة خلق الإنسان ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ اذكر يا محمد ما قاله ربك للملائكة، عندما أخبرهم بأنه جاعل خليفة له فى الأرض، فسألوا: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أتجعل خليفة فى الأرض يفسد ويريق الدماء ويعصاك، ونحن ننزهك ونطهر ذكرك؟. كيف عرفت الملائكة أن بنى آدم سوف يفسدون ويسفكون الدماء؟ تعددت الأقوال فى ذلك، فليس فى المسألة نص قرآنى ولا حديث نبوى. قال الزمخشرى: [فإن قلت من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه؟ قلت: عرفوه بإخبار من الله، أو من جهة اللوح، أو ثبت فى علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون]، ولكن إذا كانوا يطلعون على اللوح فما كانوا ليسألوا عن أمر

(١) جاء فى كتاب «الكتاب المقدس» لكارين أرمسترونج أن فى التقاليد الحاخامية قصة مشهورة اختلف فيها الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع الحاخامات فى تفسير النصوص المقدسة، ففرضوا عليه تأويلهم، فأقر فى النهاية معترفًا وضاحكًا: قهرنى أبنائى!.

(٢) جاء فى سفر إشعياء: «هذا ما يقوله الرب: أين كتاب طلاق أمكم الذى طلقتها به؟... من جراء خطاياكم قد طلقت أمكم» ٥٠: ١-٢. ويتحدث كتبة سفر حزقيال عن أكثر من ذلك فى الإصحاح ٢٣: ١-١٠.

مقضى، والله أعلم ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ فقال تعالى: إن لي حكمة في جعل الإنسان خليفة أنتم لا تعلمونها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولقد ميز الله آدم على الملائكة وعلى جميع الخلق؛ إذ علمه أسماء كل شيء. هل المقصود الأسماء فقط، أم الأسماء والخصائص؟ أم المقصود العقل الذي يستطيع به البشر تدبير أمورهم الدنيوية؟ أم اللغات؟ أم أسماء الله الحسنى بمعانيها؟ أم أسماء صفات البشر وجبلاتهم، وما يجب عليهم تزكيته وما عليهم كبحه؟ أم الخير والشر والحق والباطل؟ ذلك في علم الله. ثم عرض الله هذه الأسماء على الملائكة، فقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في سؤالكم، ولديكم مبرراته ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ قالوا سبحانك، نحن لا نعلم إلا ما علمتنا، كذلك البشر وكل مخلوقات الكون لا تعلم إلا ما علمها الله ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بكل ما في الكون، ما كان وما ندثر، وما سيكون وما سوف لا يكون، فهو كما قال سبحانه ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، بل الله هو واهب العلم لمن يشاء، وقابضه عمن يشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الحكيم في البشر هو ذو الحكمة الذي يحسن تقدير الأمور ويحسن التصرف فيها، أما في الذات العلية فهو خالق كل الأمور، وهو واهب كل أساليب التصرف فيها، وهو واهب الحكمة أو مانعها عن خلقه ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ وعندما أمر الله آدم أن يخبرهم بأسمائهم، أخبرهم بها في الحال، فقال سبحانه تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

* * *

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

هذه الآيات تخبرنا بقصة خروج آدم وحواء من الجنة إلى الأرض.

فلقد أمر الله ـ تعالى ـ ملائكته بالسجود لآدم؛ أى سجود تحية وتكريم وتعظيم للعلم الذى أودعه سبحانه وتعالى آدم، وليس معناه سجود العبادة الذى لا ينبغى إلا لله وحده، فسجدوا إلا إبليس[1]، فإنه رفض طاعة الله بالسجود لآدم إباءً واستكبارًا، فأصبح من الكافرين لعصيانه خالقه الذى يعرفه ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أسكن الله آدم وحواء الجنة[2]، وأباح لهما الأكل منها أينما شاءا هنيئًا مريئًا ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ثم حرّم عليهما الأكل من إحدى أشجارها[3] وإلا سقطا فى ظلم مبين ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ وسوس إليهما الشيطان ليأكلا من الشجرة المحرمة، فزلا وأكلا منها ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فكان سببًا فى خروجهما من الجنة[4] ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ فقال لهم الله: اهبطوا من الحياة فى الجنة إلى الحياة فى الأرض، وسيكون بعضكم لبعض عدوًا إذا اتبعتم الشيطان، وقيل بل المقصود العداوة بين البشر من ناحية، وإبليس وجنوده من ناحية أخرى، سواء كانوا شياطين الجن أو شياطين الإنس، وتكون الأرض قرارًا ورزقًا إلى أن يحين الأجل ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ ندم آدم وزوجه عما بدر منهما وراحا يستغفران الله، فألهمهما دعاء ذكرته سورة الأعراف ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ فتاب الله عليهما وغفر لهما ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وتستمر الأحداث ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ آدم وزوجه وإبليس ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ والخطاب هنا لآدم وزوجه وذريتهما، أى إذا بلغتهم رسالات

---

(١) هل كان إبليس من الملائكة أم كان معهم؟ جاء فى سورة الكهف ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الآية ٥٠]، وقول الجن فى مطلع سورة الجن يستبعدهم من أن يكونوا من الملائكة ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾، وقال كثير من المفسرين إنه كان من الملائكة، وتوقف البعض الآخر عن الخوض فى هذا الغيب ما لم يجد نصًا صريحًا من قرآن أو سنة صحيحة.

(٢) هل الجنة هى جنة الآخرة أم جنة على الأرض مثل المذكورة فى سورة الكهف؟ أكثر التفاسير على القول الأول، والله أعلم.

(٣) جاء فى سورة طه ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ [١٢٠]، أى أغراه بمعصية الله، وخدعه بأن الأكل من تلك الشجرة يهبه الخلد والملك الذى لا ينتهى، والشجرة المحرمة فى الكتاب المقدس هى شجرة معرفة الخير والشر.

(٤) خلافة البشر على الأرض هى المشيئة الإلهية الأصلية، والأكل من الشجرة المحرمة والخروج من الجنة مثل المرض أو الحادث الذى ينهى حياة إنسان ما، ما هو إلا سبب، والموت قضاء نازل لذلك السبب أو غيره.

سماوية ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أما من يكفر بآيات الله ويكذبها، فمآله إلى الخلود فى النار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾.

* * *

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾

تروى الآيات أحوال بنى إسرائيل فى أكثر من سبعين آية؛ يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (صلى الله وسلم عليهم أجمعين)، فيقول ـ سبحانه وتعالى ـ: يا أبناء يعقوب، تذكروا بالحمد والثناء نعم الله عليكم، ومنها، على سبيل المثال، إرسال الرسل إليكم، وإنزال الكتب عليكم، وإنقاذكم من فرعون وعمله، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعامكم المن والسلوى.. إلخ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال محمد عبده: [عهد الله ـ تعالى ـ إليهم يعرف من الكتاب الذى نزله إليهم، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وعهد الله إليهم أن يرسل إليهم نبيًا من بين إخوتهم، أى بنى إسماعيل. هذا هو العهد الخاص المنصوص، ويدخل فى عموم العهد عهد الله الأكبر الذى أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروى، ووزن كل شىء بميزان العقل والنظر الصحيح، لا بميزان الهوى والغرور. ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهى العام، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة فى كتابهم، لآمنوا بالنبى (ﷺ) واتبعوا النور الذى أنزل معه وكانوا من المفلحين] ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أجعلكم تفوزون بالدنيا والآخرة ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ خافونى، واتقوا عصيانى الذى يجلب عليكم عذابى ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ آمنوا بالقرآن الذى نزل متفقًا لما معكم من الكتاب[1]، أى التوراة والزبور ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ ولا تكونوا أول من يكفر به

(١) قال محمد الغزالى: [وتصديق القرآن لما مع اليهود إنما هو تصديق على الإجمال، فأهل الكتاب ليسوا كعبدة الأوثان فى الكفر بالله وإنكار الوحى الذى أنزل على المرسلين! إن القرآن يصدقهم فيما يذكرون من إيمان بالله، وإثبات الوحى، وتكليف الناس، وحساب على الأعمال، ولكنه لا يصدقهم حين يذكرون أن الله مثلاً ندم على إغراق الأرض بالطوفان، واحتاج لمن يذكره حتى لا يفعلها مرة أخرى! إنه لا يصدق العهد القديم حين يذكر أن الله نزل يتمشى على الأرض، ثم مال إلى نبيه إبراهيم؛ حيث تناول معه الغداء!! ولا يصدق القرآن العهد القديم حين يذكر أن الله صارع يعقوب ليلاً طويلاً، ثم لم يفلته حتى منحه لقب إسرائيل].

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ لا تجحدوا بالقرآن ومحمد (ﷺ) لما تظنونه خلودًا فى الأرض وملكًا لا يبلى ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ فالأولى أن تتقوا الله ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) ﴾ لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل والكذب الذى تختلقونه، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ أى حافظوا وواظبوا على الصلاة وما تأمركم به، وأنفقوا من أموالكم، واركعوا مع الراكعين لله.

* * *

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾

أتأمرون الناس بعمل الخير، ولا تعملونه، رغم أنكم تقرؤون كتابكم؟! ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ استعينوا على حوائج ومصائب الدنيا بالصبر والصلاة، وإن الصلاة لشاقة ثقيلة إلا على الخاشعين لله ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ والصلاة هينة لينة على الطائعين الذين يوقنون أنهم سيلقون ربهم فى الآخرة وسترجع كل أمورهم إليه.

* * *

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾

يذكر الله بنى إسرائيل بنعمه عليهم فى مواقف وآيات متتاليات لعلهم يستفيقون قبل فوات الأوان، فقد أرسل إليهم الرسل والأنبياء، وهذا تفضيل يستوجب حمد الله وشكره والإخلاص فى عبادته، والاتباع الصادق لكتبهم ورسلهم ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ واتقوا اليوم الذى لا يقبل الله فيه من نفس أن تشفع لأخرى، ولا أن تفديها بأى عدل، ولا ينتصر إلا من نصره الله. قال محمد عبده: [كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية، كقدماء المصريين واليونان، يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العقاب بفداء يدفع بدلاً وجزاءً عنه ـ كما يستبدل بعض حكامهم

منفعة مالية بعقوبة بدنية ـ أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ إرادته. ولقد اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص، وأتى بنيانها من القواعد].

* * *

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾

خلَّص رب العالمين بنى إسرائيل من آل فرعون حين كانوا يذبحون الذكور لخوفهم من أن يجيء منهم ولد يذهب بملك فرعون، وكانوا يحتفظون بالإناث ليستخدموهن، ثم شق الله لهم البحر فنجوا جميعًا، وحين تبعهم فرعون وجنوده، التئم البحر فغرقوا جميعًا أمام أعين بنى إسرائيل، ومع ذلك، فحين ذهب موسى (ﷺ) لميقات ربه، ظلموا أنفسهم بأن عبدوا عجلاً صنعوه بأيديهم، ثم تفضل الله عليهم فعفا عنهم حتى يشكروه، ثم وهبهم الله الكتاب، أى التوراة، يفرق بين الهدى والضلال، لعلهم يهتدون.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾

وراح موسى (ﷺ) يلوم قومه على عبادتهم للعجل، وأمرهم أن يتوبوا إلى خالقهم، بأن يقتل المؤمنون من عبد العجل، فذلك خير لهم جميعًا عند الله، عندئذ يتوب الله عليهم، إنه هو التواب الرحيم.

* * *

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾

يذكرهم الله ويعدد عليهم نعمه، ومعجزاته، ومع ذلك لم يؤمنوا بل تطاولوا، وقالوا لموسى(ﷺ): لن نؤمن لك حتى نرى الله جهارًا بيانًا، وما إن نطقوا بذلك حتى أخذتهم الصاعقة فماتوا، ثم أحياهم الله، لعلهم يشكرون ويثوبون إلى رشدهم.

* * *

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾

جعل الله السحاب فوقهم كالمظلة؛ ليقيهم حرارة الشمس عندما كانوا فى صحراء سيناء، وأنزل عليهم المن، وهو مادة حلوة لزجة كالعسل، كما أنزل عليهم السلوى، وهو الطائر المعروف بالسمان، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فكفروا بكل هذه النعم، فلم يظلموا الله بكفرهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم.

* * *

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾

واذكروا - يا بنى إسرائيل - عندما قال لكم ربكم ادخلوا القرية؛ التى ذكرها لكم رسولكم، ويظهر أنها هى غير الأرض المقدسة التى خافوا أن يدخلوها، كما سيأتى فى الآيات ٢١-٢٦ من سورة المائدة - وكلوا منها حيث شئتم، ادخلوها ساجدين متواضعين شاكرين، وقولوا حطة؛ أى احطط عنا ذنوبنا واغفر لنا، عندئذ سنغفر لكم ذنوبكم، وسنضاعف ثوابنا للمحسنين، فرفض الذين ظلموا منهم أمر ربهم، وفعلوا خلاف قوله، فأنزل عليهم ﴿ رِجْزًا ﴾ أى عذابًا من السماء جزاءً وفاقًا لفسقهم، ومعنى كلمة رجز اضطراب، وأطلقت على العذاب لما ينتج عنه من اضطراب.

* * *

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾

واذكروا يا بنى إسرائيل حين اشتد العطش بكم فى التيه فى صحراء سيناء، فدعا رسولكم موسى(عليه السلام) ربه أن يوفر لكم الماء، فأوحى إليه ربه أن اضرب بعصاك الحجر، فانفجر فى الحال اثنتا عشرة عينًا[1] بعدد أسباط بنى إسرائيل، لكل جماعة عين يشربون منها كيفما

(١) موقع هذه العيون ما زال باقيًا على الساحل الشرقى لخليج السويس فى الطريق إلى رأس سدر وشرم الشيخ.

شاءوا، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا مما فجر الله لكم، ولا تقابلوا هذه النعم بالإفساد في الأرض.

* * *

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾

بعد كل المعجزات التى قدمها الله لبنى إسرائيل، لتهيئتهم لما أراده الله منهم ولهم، إذا هم يشتكون لموسى (عليه السلام) من طعامهم، ويطلبون أكل البقول والقثاء ـ القرع ـ والحنطة ـ القمح ـ أو الثوم والعدس والبصل! فأجابهم موسى (عليه السلام): أتستبدلون تلك الأطعمة بما أراده الله لكم وبكم، وفضلكم به على العالمين؟! إذن ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ ادخلوا مصرًا من الأمصار، أى بلدًا من البلاد، فإنكم ستجدون ما تريدون، فهو لا يستحق الدعاء. وبسبب هذا البطر والتذمر، وتفضيلهم الثوم والعدس والبصل على تفضيل الله لهم، أى تفضيلهم متع الدنيا على تفضيل الله واختياره لهم ليحملوا أمانة التكليف بتوحيده واتباع شرعه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فذلك جزاء من يفضلون الثوم والعدس والبصل على ما أراده الله لهم من فضل فى الدنيا والآخرة، ومن يكفرون بآيات الله وبالمعجزات التى قدمها الله لهم، ويقتلون أنبياءهم ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وستظل تلك الذلة والمسكنة وغضب الله ملازمة لهم طالما استمروا على عصيانهم وعدوانهم على الحق وقتلهم الأنبياء، إلا بحبل من الله وحبل من الناس، كما سيجىء فى سورة آل عمران، وكما قال محمد الغزالى: [ما ينطبق على بنى إسرائيل ينطبق على بنى إسماعيل (إذا عصوا مثلهم وفضلوا الثوم والعدس والبصل)].

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾

بعد أن بينت الآية السابقة حكم الله فى جماعة بنى إسرائيل التى كفرت بآيات الله المبينة، وعصته، وقتلت أنبياءها ـ وهو حكم يسرى على أى جماعة أخرى ترتكب مثل ذلك ـ بينت

الآية الحالية أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، فله أجره عند الله ولا خوف عليه ولا يحزن. وجمعت الآية فى ذلك مع المؤمنين بمحمد (ﷺ) اليهود ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ والنصارى و ﴿الصَّابِئِينَ﴾ الذين تعددت أقوال المفسرين فيهم، فمن قائل هم الذين خرجوا من أديان أقوامهم إلى الإيمان بالله وحده ويوم الحساب، ومن قائل إنهم طائفة من النصارى، أو طائفة اتبعت نبى الله يحيى (ﷺ)، ومن قائل بغير ذلك، و يُقال إنه ما زال هناك بقايا لهم فى العراق، والمحك فى كل ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات. هل الآية تعنى أن ذلك الحكم الإلهى يسرى قبل البعثة المحمدية ورسالة خاتم النبيين؟ أم تعنى الآية ـ بشكل ضمنى ـ أن أهل الكتاب: اليهود والنصارى، إذا اتبعوا كتابهم الحق، بإخلاص وبدون تعصب، لوجدوا فيه البشارات والإشارات لمحمد (ﷺ)، فيلزمهم اتباعه؟ أو أن هناك فارقًا بين من بلغته دعوة الإسلام صحيحة نقية، وبين من لم تبلغه على الإطلاق، أو بلغته مشوهة محرفة؟ قال أبو منصور الماتُريدى: [قيل: إن اليهود والنصارى وهؤلاء (الآخرين) جائز أن يكون لهم تعلق بظاهر هذه الآية؛ لأنهم كانوا يقولون: إنا آمنا بالله، وآمنا باليوم الآخر، فليس علينا خوف ولا حزن، لكن الجواب لهذا (على) وجوه:

أحدها: أنَّه ذكر المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإيمانهم ما ذكر فى آية أخرى وهو قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وهم قد فرقوا بين الرسل، بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وفرقوا بين الكتب أيضًا: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. فهؤلاء الذى ذكرهم ـ عز وجل ـ فى هذه الآية، هم الذين آمنوا بجميع الرسل، وآمنوا بجميع الكتب أيضًا. فإذا كان هذا إيمانهم لم يكن عليهم خوف ولا حزن.

والثانى: ذَكَر الإيمان بالله. والإيمان بالله هو الإيمان بجميع الرسل، وبجميع الكتب. ولكنهم لا يؤمنون بالله، ولا يعرفونه فى الحقيقة.

أو أن يقال: ذكر عملَ الصالحات، والكفرُ ببعض الرسل ليس من عمل الصالحات؛ لذلك بطل تعلقهم بهذا، والله أعلم].

وقال أبو زهرة: [والإيمان بالله ـ تعالى ـ هو باعتقاد وحدانيته فى الخلق، وبألا يعتقدوا أن أحدًا شارك الله ـ تعالى ـ فى إنشائه الخلق، وأنه وحده خالق كل من فى الوجود، وأنه ليس بوالد ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه جلت صفاته، فليس كمثله أحد، وهو السميع البصير، وأن يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب، وثواب وعقاب، وأن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله.

هذا هو الإيمان، فمن آمن من أتباع محمد (ﷺ) ذلك الإيمان، وأردف إيمانه بالعمل الصالح الذى يكون طاعة لله ـ تعالى ـ وفيه صلاح الناس ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكذلك من آمن من اليهود بالله والملائكة الأطهار والرسل الأمجاد، ومنهم محمد بن عبد الله رسوله الأمين، وعلم أن الله منزه عن مشابهة المخلوقين، وأنه ليس كمثله شيء وعمل صالحًا ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكذلك النصارى إذا آمنوا بالله ورسله، وأنه ليس بوالد ولا ولد ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هذا هو الإيمان بالله حق الإيمان.

وكذلك الصابئون من توافر فيهم ذلك الإيمان الموحد بالله ـ تعالى ـ فى الخلق والتكوين والعبادة وآمن بالغيب، وملائكته وكتبه ورسله عامة ورسوله محمد (ﷺ) خاصة].

بينما نقلَ كلٌّ من محمد عبده والمراغى كلام الإمام أبى حامد الغزالى: [أن الناس فى شأن بعثة النبى (ﷺ) أصناف ثلاثة: من لم يعلم بها بالمرة، وهؤلاء ناجون حتمًا، ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالاً أو عنادًا واستكبارًا، وهؤلاء مؤاخذون حتمًا، ومن بلغته على غير وجهها، أو مع فقد شرطها، وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر، وهؤلاء فى معنى الصنف الأول]. وأفاض محمد عبده فى شرح الآية فيما يقارب ثلاث صفحات. تبقى إضافة واجبة، وهى ما بينته سورة الأعراف من أن الله خلق فى فطرة الإنسان، وفى ذاكرته عقيدة التوحيد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢].

وفى مقابل هذا النص القرآنى وتفسيراته المتعددة، نجد التيار الرئيسى والتقليدى فى اليهودية هو التمييز الهائل بين اليهود وغير اليهود ـ الأغيار ـ بصرف النظر عما يؤمن به اليهود وعما يعملون، وعما يؤمن به الأغيار وعما يعملون، ومن الأقوال المتواترة لدى حاخاماتهم أن الفرق بين اليهودى وغير اليهودى أكبر من الفرق بين الإنسان والحيوان. وهم لا يؤمنون بعيسى (ﷺ) كرسول ولا بكتابه، ويقولون إنه ابن زنا، وكذلك لا يؤمنون بمحمد (ﷺ) ولا بكتابه ويقولون إنه مدع.

كذلك فى المسيحية، فالتيار الرئيسى والتقليدى أن محمدًا (ﷺ) مدع، وأنه كتب القرآن، بل إن الرأى الرئيسى والتقليدى عند الكنيسة الكاثوليكية أنه لاخلاص خارج الكنيسة، أى الكاثوليك

فقط ينالون الخلاص فى الآخرة، ولن يناله غيرهم حتى لو كانوا مسيحيين بروتستانت أو أرثوذكس أو موحدين، والرأى التقليدى السائد عند البروتستانت أنهم فقط الناجون يوم الحساب، وأن بابا روما هو عدو المسيح، قال ذلك مارتن لوثر منشئ البروتستانتية، أو الإصلاح، ويقوله حتى اليوم التيار الرئيسى والتقليدى الملتزم بين البروتستانت، ويقول عن كنيسة روما أكبر وثنية فى التاريخ.

والرأى الرئيسى والتقليدى عند الكاثوليك والبروتستانت عن الكنائس الشرقية الأرثوذكسية أنها تتبع هرطقة، أى انحرافًا هائلاً عن الدين.

وقد كررت وأكدت آيات عديدة فى القرآن، أنه ليس علينا أو لنا أن نحكم على أحد، وإنما الله يحكم بين الناس يوم الحساب.

* * *

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾

ولقد رفع الله جبل الطور فوق رءوس اليهود فى سَيْناءَ بعد أن أخذ ميثاقهم على العمل بما أنزل على رسولهم موسى (ﷺ)، والالتزام به بقوة وشدة، حتى يتقوا الشرك والضلال فى الاعتقاد والعمل. وقال بعض المفسرين: إن رفع الطور فوقهم وتهديدهم بإسقاطه عليهم كان لأخذ الميثاق، والرد عليهم أن ذلك يخالف ظاهر الآية التى قدمت الميثاق على رفع الطور، وكذلك فإن آية ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ تعارض ذلك، أما التهديد بالعقاب الإلهى لمن آمن، بإسقاط الجبل وما يشابهه، فهو حادث بالفعل لكثير من المؤمنين، ولكلٍّ منهم جبل الطور الخاص به. برغم رفع الطور، أعرض اليهود عما أنزل الله، ولولا فضل الله عليهم بإمهالهم ليتوبوا لكانوا من الخاسرين المستحقين للنار.

* * *

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾

لقد أمرهم الله بالامتناع عن العمل يوم السبت ليتفرغوا للعبادة، قال مجاهد: [مُسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفارًا] وقد وافق على رأى مجاهد محمد عبده والمراغى وأبو زهرة وغيرهم، ولكن الجمهور على أنهم

مُسخوا بالفعل، ورد عليهم محمد عبده قائلاً: [الآية ليست نصّا فيه (معنى أنهم صاروا قردة بالفعل)، ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة؛ لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان؛ إذ ذلك ليس من سنته فى خلقه، ولكنهم عصوا ربهم وراحوا يصطادون فسخطهم الله قردة مطرودين من رحمة الله] وقال سيد قطب: [ليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم] ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ النكل هو القيد، والمعنى جعلنا عقوبتهم قيداً ومانعًا لمن عاصرهم، ولمن يجىء بعدهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

* * *

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾

قُتل قتيل فى بنى إسرائيل وكانوا يريدون معرفة القاتل ليقتصوا منه، فسألوا رسولهم موسى (ﷺ) أن يدعو الله ليبينه لهم فدعاه، وجاء الرد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ثم يأخذون بعضًا منها ويضربون به القتيل فيحيا ويذكر اسم قاتله، فتعجبوا فى ذلك وقالوا لموسى: أتهزأ بنا؟! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ثم بدءوا سلسلة من الجدل المتعنت ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ما حالها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ ليست عجوزًا ﴿وَلا بِكْرٌ﴾ ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وسط بين ذلك ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ فافعلوا ما أمرتم به ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فتمادوا فى الأسئلة، وطلبوا تحديد لونها، فأجابهم موسى (ﷺ): ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ ورغم ذلك استمروا فى تعنتهم قائلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾ فأجابهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ إنها بقرة لم تُذَلَّل بالعمل فى الحراثة

والسقيا، سالمة من العيوب ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ كادوا يعودون إلى المجادلة وكادوا ألا يذبحوها.

* * *

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾

وهكذا الله قادر على كل شيء، فعندما قتلتم نفسًا واختلفتم فيما بينكم من القاتل، كشف الله ما تكتمون فى نفوسكم ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فضربوه، فعاد إلى الحياة وأخبر بقاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كذلك يريكم الله كيف يحيى الأموات، وسوف يحيى كل البشر ليوم الحساب ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم غلظت وتصلبت قلوبكم وصارت كالحجارة أو هى أشد قسوة من الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مع أن بعض الأحجار تنفجر منها المياه وتسيل أنهارًا، ومن بعضها تخرج العيون، كما حدث عندما ضرب موسى (ﷺ) بعصاه الحجر، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله كما اندك الجبل لما تجلى له ربه، كما جاء فى الآية ١٤٣ من سورة الأعراف، أما قلوبكم فإنها لا تعرف الرحمة ولا اللين، والله ليس بغافل عنكم ولا عما تعملون.

روى القرآن قصة البقرة بتفاصيلها ليعلم اليهود أن مصدره إلهى، فلا يستمرون فى جحودهم ونكرانهم لرسالة خاتم النبيين، ومن جهة أخرى، فعلى المسلمين أن يتخذوا منها عبرة، فلا يتعنتوا ويتنطعوا فى أسئلتهم، ولا يتشددوا فى التفاصيل على حساب الجوهر، كما استهلك بنو إسرائيل طاقتهم فى السؤال عن البقرة، وكادوا فى النهاية يعصون الأمر بذبحها.

* * *

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾

ما كان ينبغي لكم أيها المؤمنون أن تطمعوا في أن يؤمن كل اليهود بدينكم، وأحبارهم يسمعون التوراة ويفهمونها حق الفهم ثم يعمدون إلى تحريفها وَفْقًا لأهوائهم ومصالحهم[1]، وهم يعلمون ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقًا ما داموا معهم، وإذا انفرد بعضهم ببعض قالوا: أتحدثونهم بما جاء في التوراة ليتخذوه حجة عليكم عند ربكم! أين ذهبت عقولكم؟! ثم يوبخهم الله قائلاً: أفلا يعلم هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون؟!.

* * *

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ومن اليهود فريق من العوام لا يعلمون التوراة ولا يفهمون مقاصدها، ويؤولونها كما تتمنى أهواؤهم، ويفهمونها كما يشاءون وليس كما شاء مُنزلها، ثم أضاف أحبارهم وعلماؤهم ما يريدون إلى الكتاب المقدس، فالويل لهؤلاء الذين يزورون الكتاب ويزعمون أن ما يكتبون هو من عند الله ليشتروا عرضًا رخيصًا من متاع الدنيا، وعلى حساب الحق الذي من عند ربهم، فالهلاك لهم مما كتبت أيديهم ومما يكسبون من الإثم.

* * *

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ومن أمانيهم ما يتلقونه من أحبارهم من أن النار لن تمس يهوديًا مهما ارتكب من المعاصي إلا أيامًا معدودة، قالوا إنها مدة عبادة آبائهم العجل، وقالوا بضعة أيام، يوم لكل ألف سنة من عمر الدنيا، فقل لهم يا محمد: هل تعاهدتم مع الله على ذلك فاطمأنتم؛ لأن الله لا

(١) على سبيل المثال لا الحصر، قال إرميا على لسان ربه: «كيف تدعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب بينما حولها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟ حتى النبي والكاهن يرتكبان الزور» إرميا ٨: ٨، ١٠. والمعنى واضح: كذب الكتبة على الله، وخدعوا بني إسرائيل بما كتبوه.

يخلف وعده، أم أنكم تفترون الكذب على الله؟ ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ الحق أنكم تفترون الكذب على الله؛ فحكم الله العام نافذ فى جميع خلقه، لا فرق بين يهودى ومسيحى ومسلم ولا غيرهم، فكل منْ يرتكب السيئات وتحيط به خَطيئَاته حتى تسد عليه منافذ التوبة والعودة للإيمان وأحاط به كفره ويموت آثمًا، فهو من الخالدين فى النار، واستند المعتزلة على هذه الآية ليؤكدوا مذهبهم بأن مرتكب الكبيرة خالد فى النار، وأوّلها الأشاعرة بأن المقصود بالخطيئة هنا الشرك، وعلق على ذلك محمد عبده قائلاً: [إن القرآن فوق المذاهب، وهو يرشد إلى أنّ من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمنًا]، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأولئك أصحاب الجنة الخالدون فيها.

* * *

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾

أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ألا يعبدوا إلا إياه، وأن يحسنوا إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، وألا يقولوا إلا القول الطيب، وأن يحافظوا على إقامة الصلاة، وأن يعطوا الزكاة.. إلا أنهم تولوا وأداروا ظهورهم لهذا الميثاق، إلا قليلاً منهم، مدحهم الله فى أكثر من آية، فعلينا ألاّ نعمم.

* * *

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)﴾

كان بالمدينة قبل الإسلام قبيلتان رئيسيتان متعاديتان هما الأوس والخزرج، وعدة قبائل من بنى إسرائيل منها بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وغيرها، منها من حالف الأوس ومنها من

حالف الخزرج، فإذا اقتتلت القبيلتان العربيتان انضم إلى كل قبيلة حلفاؤها من بنى إسرائيل، ويدور القتال بينهم فيقتل بعضهم البعض، ويخرجون بعضهم من بيوتهم، وهذا حرام فى شرعهم، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها تبدأ كل قبيلة فى افتداء أسراها، فحق عليهم قول الله ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ فما لكم تؤمنون ببعض آيات الله، وتكفرون وتعطلون بعضها الآخر ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ لأنه يختار من الشرع ما يوافق هواه، ويرفض ما لا يوافقه ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أولئك الذين آثروا أهواءهم على شرعهم، فلن يخفف عنهم العذاب، ولن يجدوا من ينصرهم أو يشفع لهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦) ﴾.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

تذكروا يابنى إسرائيل أنا أرسلنا إليكم موسى وأنزلنا عليه التوراة، ثم أرسلنا بعده عددًا من الرسل منهم عيسى ابن مريم، وأيدناه بالمعجزات وقويناه بروح القدس، وهو جبريل رسول الوحى الأمين ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ ﴾ بما لا تحب أنفسكم ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فبعض الرسل تتعالون عليهم وتكذبونهم، والبعض الآخر تقتلون ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ وكان ردهم أن قلوبهم مغطاة مصمتة لا تنفذ إليها الدعوة إلى الله ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بل لعنهم الله بهذا الجحود، وتعطيلهم ما حباهم الله به من فطرة وعقل ومدارك، وعدائهم للرسل الذين لا يأتون على أهوائهم.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١)﴾

ولما جاءهم القرآن الكريم موافقًا لما معهم فى التوراة[١] وكانوا يطلبون من الله النصر على الكفار من العرب بالنبى المبعوث آخر الزمان، فلما بُعث النبى (ﷺ) كفروا به ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فقد امتلأت قلوبهم بغيًا وحسدًا وكراهية لمحمد (ﷺ) والعرب، بل وتمادوا حتى كرهوا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده سواهم، وكأن الهداية السماوية التى رفضوها ـ والكتب التى لم يحفظوا كلماتها ولم يقيموا معانيها ـ والرسل الذين رفضوا اتباعهم وقتلوا الكثير منهم ـ حكر عليهم، فزادوا غضب الله عليهم، واستحقوا عذابه المهين على كفرهم، وإذا قيل لهم آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله، قالوا نكفينا التوراة التى أنزلت علينا، ويكفرون بالإنجيل وبالقرآن رغم أنهما الحق المبين الذى يصدق على التوراة، ثم تواجههم الآية بأكبر جريمة يمكن لبشر أن يرتكبوها ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ولذا قال عيسى (ﷺ): يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء! وقال عن أحبارها وكتبتها: يا حيات يا أولاد الأفاعى[٢]!

* * *

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾

وما زال القرآن يذكرهم بأفعالهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الدالة على صدق رسالته، بدءًا بمواجهة فرعون، وتحول عصاه إلى ثعبان يلقف ما يأفك السحرة، وبقية الآيات التى أنزلها الله بفرعون ومن تبعه، مرورًا بإغراق فرعون وجنوده فى اليم أمام أعينهم،

(١) ارجع لتعليق محمد الغزالى على الآية ٤١ .

(٢) من يقرأ العهد القديم من الكتاب المقدس، يجد معظمه يتحدث عن انحراف بنى إسرائيل وعبادتهم آلهة أخرى غير الله، ومن ثم عقاب الله لهم، فهى قصة متكررة عشرات المرات، انحراف وعقاب، وهكذا دواليك، وجاء فى إنجيل متى أن يوحنا المعمدان [يحيى (ﷺ)] قال للفريسيين والصدوقيين ـ وهما طائفتان من اليهود ـ: «ها إن الفأس قد ألقيت على أصل الشجر، فكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تُقطع وتطرح فى النار» (٣ : ١٠)، وفى هذا إنذار لهم بأن النبوة والرسالة ستتحول عنهم. وفى نفس الإنجيل، قال عيسى (ﷺ) لعامة اليهود: «إن لم يزد بركم على بر الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً» (٥ : ٢٠).

إلى الغمامة التى ظللتهم فى سيناء، ثم ضرب الحجر لتنفجر منه اثنتا عشرة عينًا من الماء كى يشربوا، إلى إنزال المن والسلوى ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ فبعد كل هذه المعجزات كفرتم، ورغم كفركم، أمهلكم الله، وأرسل لكم آية أخرى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ فإذا بكم تقولون متطاولين متجبرين ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ فأدى كفرهم إلى أن ﴿أُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ تشربت قلوبهم حب العجل، والعجل رمز لعبادة الأوثان والأهواء، ورفض التوحيد، فقل لهم يا محمد: بئس ما دفعكم إليه إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

* * *

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

قال بعض بنى إسرائيل: إن الجنة ستكون خالصة لهم من دون البشر، فأوحى الله تعالى لمحمد (ﷺ) أن يرد عليهم قائلاً: إذن فاطلبوا الموت لتدخلوا الجنة وتنعموا بها، إن كنتم صادقين، ولكنهم ﴿لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما ارتكبوا من آثام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ثم يخاطب الله محمداً (ﷺ) ومن آمن به ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهم يريدون الخلود فى متع الدنيا مثلهم مثل المشركين ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ولن ينجيه ذلك، إن حدث، من العذاب الأليم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾

قال يهود المدينة، إن جبريل عدوهم، فنزل قول الله إن جبريل ينزل بالوحى على قلب محمد (ﷺ) مصدقًا على التوراة والإنجيل، يحمل الهداية والبشرى للمؤمنين، ومن يعادى الله وملائكته ورسله فقد حق عليه عداء الله وغضبه وعقابه، ثم يُطمئن الله رسوله محمداً فى

تلك الحرب الفكرية الضارية التى يشنها عليه اليهود فى المدينة ومن والاهم، وتلك الحرب التى مازالت ضارية ضد المسلمين حتى اليوم، ولكنها تارة معلنة وتارة سرية، وكثيراً ما تتخذ أشكالاً وأسماء خادعة ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ ثم يخبر الله رسوله (ﷺ) عما تكرر من فريق من اليهود من نقض العهود، حتى لا يتعجب من موقفهم تجاهه، وحتى يعد العدة له ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

* * *

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

ولما جاءهم رسول الله (ﷺ) مصدقًا بالقرآن لما معهم من التوراة، نبذ فريق منهم، وهم أكثر أحبارهم وعلمائهم ومن تبعهم من العوام، كتاب الله، وهو التوراة، كأنهم لا يعلمون ما فيها عن محمد (ﷺ)، واتبعوا ما يقوله شياطين الإنس والجن على ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ زعم اليهود أن سليمان (ﷺ) كفر وعبد الأوثان فبرأه الله[1] ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ تعددت أقوال المفسرين تعددًا واسعًا فى شرح هذه الآية وما يليها، فقال محمد عبده: [بيَّنَّا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة

(١) بل كتبوا بأيديهم أن سليمان (ﷺ) كان زير نساء، وكفر عن عبادة الله، فجاء فى سفر الملوك الأول، الإصحاح ١١: وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات.. فكانت له سبع مئة زوجة وثلاث مئة محظية، فانحرفن بقلبه عن الرب... وما لبث أن عبد عشتاروت آلهة الصيدونيين، وملكوم إله العمونيين البغيض... وأقام على تل شرقى أورشليم مرتفعًا لكموش إله الموآبيين الفاسق، ولمولك إله بنى عمون البغيض ١١: ٧. و«هيكل» سليمان، الذى يقول العهد القديم إنه كفر، هو ما تنقب إسرائيل عنه فى المسجد الأقصى منذ احتلالها القدس فى (١٩٦٧)، ولم تجد له أثرًا، وهذا الهيكل، الذى بناه الملك الذى كفر، طبقًا لقول اليهود وأحبارهم وكتابهم المقدس، من أسباب زعمهم بأن القدس عاصمتهم الأبدية.

والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين. وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة، ولا تتجاوز موطن الهداية.

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء فى حقيقة السحر وفى أحكامه، وعده بعضهم من خوارق العادات، وفرقوا بينه وبين المعجزة، وفى قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وجهان: (أحدهما): أنه متصل بقوله ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ أى أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر. (وثانيهما): وهو الأظهر، أنه متصل بالكلام عن اليهود، وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم.

أى أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وههنا يقول القائل: بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان فى رميه بالكفر، وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه؟ فأجاب على طريق الاستئناف البيانى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، إلخ. ونفى الكفر عن سليمان وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض، فعلم أيضًا أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضًا. وإنما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر؛ لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها، ويضرون بها الناس خداعًا وتمويهًا وتلبيسًا.

ثم قال ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها، كما أجمل فى ذكر تعليم السحر، فلم يذكر ما هو؟ أشعوذة وتخييل، أم خواص طبيعية، وتأثيرات نفسية؟].

وقال مخلوف: [ما يرويه المفسرون فى قصة هاروت وماروت لا أصل له، وهو من أكاذيب الإسرائيليين، فلا يعول عليه] ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون المجتمعين؛ المرء وزوجه، ولكن الله يقول ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ليس لهم قوة الإضرار بأحد، إلا أن يكون عقابًا من الله على ذنوب ارتكبها، أو على اتباعه لهم ولأساليبهم المحرمة، ولا يجنى المشتغل بالسحر إلا الضرر ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ويالها من صفقة خاسرة باعوا أنفسهم فى سبيلها ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ

أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لو كان بهم بقية من علم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾ ولو أن أولئك اليهود آمنوا واتقوا؛ لأثابهم الله خيراً لهم.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾

﴿ رَاعِنَا ﴾ أى ارْعنا سمعك، أعطنا أذنك، ولقد كان اليهود يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة قاصدين بها النيل من الرسول (ﷺ) بوسمه بالرعونة؛ لذلك قال تعالى للمؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ لا ترددوا مقولة اليهود، ولكن قولوا للرسول انظرنا، بمعنى ضعنا فى اعتبارك ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ اسمعوا وأطيعوا ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يجب أن نعلم ـ معشر المسلمين ـ أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين لا يتمنون لنا الخير غيظًا من نزول الوحى على محمد (ﷺ) ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ والله صاحب الفضل العظيم، يختار من يشاء لأداء رسالته، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

* * *

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ النسخ هو رفع الحكم الشرعى فى آية بحكم شرعى آخر فى آية أخرى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ نذهبها من ذاكرة الناس ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وإنما تَغَيُّرُ ذلك يرجع إلى حكمة الله فى تسيير الكون، وهو أعلم بما شرعه لعباده.

قال المتربصون بالإسلام قديمًا وحديثًا: أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، ما هذا القرآن إلا كلام محمد، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] وأنزل الله أيضًا ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ثم إن الله هو الذى يملك أمور السماوات والأرض ويدبرها ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ

اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾ ليس لنا غير الله يلي أمورنا ويهدينا وينصرنا ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: [نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى أمية ورهط من قريش، قالوا: يامحمد، اجعل لنا جبل الصفا ذهبًا، ووسِّع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك، فأنزل الله هذه الآية]. وتنهى الآية المؤمنين عن التعنت فى السؤال، وألا يتبعوا ما مارسه بنو إسرائيل مع موسى (ﷺ) من كثرة السؤال ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فقد ضل الطريق المستقيم.

* * *

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

بعد أن اتضح للكثير من أهل الكتاب حقيقة رسالة محمد (ﷺ)، إلا أنهم ودوا لو يكفر المسلمون حسدًا من نفوسهم، وتأمر الآية المسلمين: اعفوا واصفحوا عنهم حتى يأتى الله بأمره، وهو على كل شىء قدير. ثم تأمر المسلمين بأن يقيموا عماد الدين، يقيموا الصلاة، بإتمامها وإحسان أركانها، والعمل بما تأمر به ـ ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ـ وينفقوا من أموالهم، فالزكاة هى تصديق الإيمان، ثم تطمئن المؤمنين العاملين ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾

قال أهل الكتاب: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ التى تمنوها على الله بغير حق ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ هاتوا الدليل على ما تقولون، ويقدم القرآن رؤيته التى تسع كل المؤمنين، فى مقابل الرؤية السائدة عند أهل الكتاب التى تقوم على

فكرة انتقائية من وجه، واستبعادية من الوجه الآخر، قالت أولاً إن اليهود شعب الله المختار، وبقية الناس الأغيار أو الأمم، مستبعدين، ثم قال آباء الكنيسة الكاثوليكية إن الكنيسة وشعبها هم الذين أصبحوا شعب الله المختار، ولا خلاص خارج الكنيسة، ثم جاء البروتستانت، أو المصلحون، فقالوا بل نحن أصبحنا شعب الله المختار ـ يقدم القرآن مقابل تلك الرؤية الإقصائية التى لا تقبل الآخر، حتى فى ملكوت الله ورحمته الواسعة والتى كان، ولا زال، لها أكبر التأثير على أكثر اليهود، وأكثر المسيحيين فى أوروبا وفى الولايات المتحدة[1]، يقول القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، ويقول تعالى ردًا على رؤية اليهود والنصارى الاستقصائية للآخر: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ فيؤكد ويكرر أن رحمة الله تسع كل المؤمنين الذين يسلمون وجوههم لله، ويحسنون العمل، فهو تصديق الإيمان، فأولئك لهم رضا الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

* * *

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾

يبين الله فى هذه الآية أنه هو الحكم بين الناس فى الآخرة، وليس لأحد أن يحكم على الآخرين، ومن قال مثل قول اليهود والنصارى، بإطلاق الحكم على الآخرين الذين يتلون الكتاب بأنهم ليسوا على شىء فهو مثلهم لا يعلم[2].

* * *

(١) شكلت أسطورة شعب الله المختار ثقافة وحضارة اليهود والمسيحيين فى أوروبا، وهناك عشرات الكتب الغربية التى تكلمت فى ذلك، نذكر منها هنا كتابين: الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا، كتبه الصحفى الكاثوليكى كليفورد لونجلى وترجمته مكتبة الشروق الدولية فى ثلاثة أجزاء، وكتاب Chosen People كتبه أنتونى سميث، ونشرته أكسفورد.

(٢) ما بينته الآية يقوله اليهود والنصارى حتى اليوم، بل تقول الكنيسة الكاثوليكية لا خلاص خارج الكنيسة، ويقول البروتستانت عن بابا الكاثوليك إنه عدو المسيح، ويعتبر الموحدون من المسيحيين أن من يقول بألوهية عيسى (ﷺ) على باطل، وتقول كنائس الغرب عن كنائس الشرق إنها تتبع هرطقة، ويعتبر المورمون=

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

ليس هناك من أظلم ممن منع ذكرًا لله فى المساجد، والصلاة هى نوع من الذكر، أولئك الظالمون الذين يمنعون ذكر الله فى المساجد، يخافون من دخولها بدلاً من أن تطمئن قلوبهم بذلك كما تطمئن قلوب المؤمنين، وأولئك الظالمون لهم فى الدنيا خزى، وينتظرهم فى الآخرة عذاب عظيم. ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ هذه الآية تعطى المسلمين سعة لا نهائية فى أماكن الصلاة، وفى كل أعمال الخير، فوجه الله فى كل مكان، للصلاة، ولكافة أعمال الخير ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

* * *

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾

قالت اليهود عُزَيْر ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله[1]، ورد الله ـ تعالى ـ عليهم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزه عن الولد، وقد خلق الله العائلة من أب وأم ينجبان الأولاد، حتى تتوالى الأجيال، وجعل العاطفة والمحبة والمودة والشهوة الجنسية سببًا للزواج، ومن ثم الإنجاب، ومعها حب امتداد الذكر، وحب الأولاد، والحاجة إليهم فى شيخوخة الوالدين كعون وعزوة فى الشدائد، وربما حتى قبل ذلك، فكل ذلك النظام لحكمة أرادها الخالق فى خلقه، وهو غنى عن كل ذلك، سبحانه ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي

= أن كتابهم هو الصحيح وليس الأناجيل الأخرى، والمورمون طائفة مسيحية جديدة ظهرت فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فى الولايات المتحدة على يد من تعتبره نبيًا جديداً، اسمه جوزيف سميث، وتوالى أنبياؤهم حتى اليوم، ولهم كتاب يعتبرونه الإنجيل الصحيح، ومن أشهرهم أصحاب فنادق ماريوت، ولذلك نجد كتابهم فى كل غرف فنادق ماريوت فى العالم، ومقرهم الرئيسى فى ولاية يوتا.

(١) كذلك جاء فى سفر التكوين فى الكتاب المقدس: وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض وولد لهم بنات، انجذبت أنظار أبناء الله إلى بنات الناس، فرأوا أنهن جميلات، فاتخذوا لأنفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم. فقال الرب: «لن يمكث روحى مجاهداً فى الإنسان إلى الأبد. هو بشرى زائغ، لذلك لن تطول أيامه أكثر من مئة وعشرين سنة فقط». وفى تلك الحقب، كان فى الأرض جبابرة، وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس ولدن لهم أبناء، صار هؤلاء الأبناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم (٦: ١-٤).

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ تقدس الله وتنزه عما يقولون، له جميع ما فى السماوات والأرض وهم له خاضعون ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾ أبدع السماوات والأرض، وإذا قضى أمرًا حدث فى التو واللحظة بـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

* * *

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾

هكذا يطلب الجاهلون الجاحدون رسالة محمد (ﷺ) ما طلبته الأمم السابقة من رسلها أن يكلمهم الله، أو يروا الله جهرة، أو ينزل عليهم مائدة من السماء، أو يحول الجبال حولهم إلى ذهب، وما إلى ذلك ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تشابهوا فى التكبر والجهل والجحود ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لقد بينا وأظهرنا الدلالات لمن يريد أن يهتدى ويتبع فطرته السليمة ومداركه التى حباه الله بها، ولم يتنكر لشهادته الأولى على ربوبية الله.

* * *

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾

أرسل الله محمدًا (ﷺ) بشيرًا بالخير للمؤمنين ونذيرًا بالعقاب للكافرين، ولقد كان يبذل كل وسعه ونفسه لهداية الناس ـ حتى قال الله له: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]. فقال الله ـ تعالى ـ له: إنك يا محمد لن تُسْأَلَ عن تكبر وجحود الكفار الذين مآلهم إلى الجحيم، وعرَّفه مسبقًا، وعرَّفنا أيضًا، وإلى يوم الدين ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ إنهم لن يرضوا عنك، وعنا، حتى تخرج، ونخرج، من ملة الإسلام إلى ملتهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قل لهم إن هدى الله هو الإسلام، ومن يتبع أهواء هؤلاء من بعد أن عرف هدى التوحيد، فلن يكون له فى الدنيا ولا الآخرة من ولىّ حق ولا نصير حق.

* * *

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾

دائمًا وأبدًا يتبع القرآن قاعدة ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً . . (١١٣) ﴾ [آل عمران]، فهو لا يطلق الأحكام على كافة أهل الكتاب ولا على كافة المسلمين، فهناك دائمًا من يؤمن إيمانًا حقيقيًا صادقًا، ويُصَدِّقه العمل، وهناك من يكفر كفرًا بواحًا، وهناك من ينافق، في الأديان الكتابية الثلاثة، وتذكر الآية فريقًا من المؤمنين من أهل الكتاب، تفقهوا في أسفارهم الحقيقية وتلوها حق تلاوتها، ففطنوا إليها وعملوا بها، مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلموا، فأولئك يؤمنون بالقرآن، ومن يكفر بأي كتاب منزل فأولئك هم الخاسرون.

* * *

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي عليكم، فقد نجيتكم من ظلم فرعون وأغرقته هو وجنوده أمام أعينكم، وفجرت لكم عيون الماء من الحجر، ورزقتكم المن والسلوى، وأنزلت عليكم التوراة، وبعثت الرسل منكم وفيكم. . وغفرت لكم كثيرًا، وفضلتكم بتكليفكم باتباع الأنبياء والرسل، والتوراة والزبور ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ هو يوم الحساب، حين لا تنفع نفس نفسًا أخرى، ولا يقبل الله منها عدلاً، ولا تنفعها شفاعة الشافعين، ولا ينتصر إلا من ينصره الله.

* * *

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾

وإذ اختبر الله إبراهيم (عليه السلام) وامتحنه بكلمات، لم يبينها القرآن ولم يرد فيها حديث صحيح ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي أداهن أداءً تامًا ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ يأتمّ الناس ويقتدون بك، فسأله إبراهيم (عليه السلام) بلطف واستحياء جديرين بأبي الأنبياء ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ وهل تمن على يا رب العالمين بأن تجعل ذريتي أئمة؟ فأجابه الله ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فلا ينال

هذا العهد ـ أى الوعد بالإمامة ـ الظالمين، فهذه منزلة لا ينالها إلا من يجتاز الاختبار، وليس كل من يخرج من الرحم، كما زعم اليهود فيما بعد.

* * *

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾

جعل الله البيت الحرام مرجعًا للحجاج والمعتمرين، يأمنون فيه ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قيل هو الحجر الذى كان يقف عليه إبراهيم (عليه السلام) لبناء الكعبة، وموضعه معروف حتى الآن، وقيل هو الحرم كله، وقيل هو الأماكن التى أقام فيها إبراهيم (عليه السلام) أثناء حجه، فتشمل الحرم وعرفة والمزدلفة ومنى، وأوكل الله إلى إبراهيم وابنه اسماعيل (صلى الله عليهما وسلم) أن يطهرا البيت الحرام من كل أنواع الرجس، سواء ما تعلق بالعقيدة أو الشريعة لكل من يطوف بالكعبة، سواء كانوا قادمين لذلك ثم عائدين لبلادهم، أو عاكفين لفترة، أو مقيمين حول الكعبة، أو كانوا مصلين حولها راكعين وساجدين. ودعا إبراهيم (عليه السلام) الله أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر من الثمرات، فاستجاب الله له، وقال: وأيضًا أمتع الكافرين قليلاً فى الدنيا الفانية، وينتظرهم عذاب أليم فى الآخرة.

* * *

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾

دعا إبراهيم وولده إسماعيل (صلى الله عليهما وسلم) عند رفعهما قواعد الكعبة ليضعاها فى أماكنها، وللمراغى تعليق مهم هنا، سار فيه على نهج محمد عبده وتعليقه المستفيض على الآية: [هذا نص فى أنهما هما اللذان بنياه لعبادة الله فى تلك البلاد الوثنية، وجعلاه موضعًا لضروب من العبادة التى لا تكون فى غيره، وذلك هو مصدر شرفه لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار، أو بأنه نزل من السماء، فكل ماروى بصدد هذا هو من الإسرائيليات التى لا

يُعول عليها، ولا ينبغي تصديقها، ولا يقبلها العلماء الذين يفقهون أسرار الدين ويفهمون مراميه] ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ربنا تقبل عملنا، فأنت وحدك السميع لنا، وأنت وحدك العليم بأحوالنا ونياتنا ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ربنا واجعلنا مسلمين الوجه والقلب لك، وكذلك أولادنا وأحفادنا ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بصِّرنا كيف نقيم مناسك عبادتك ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ فيما صدر منا من ذنوب، وبحفظنا من أن نأتي أي ذنوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ثم تأخذهما الرحمة والشفقة والجزع على ذريتهما، فيتوجهان بقلوب آملة في الله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ وهذه الدعوة تحققت في بعثة محمد (ﷺ) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يتلو عليهم آياتك التي أنزلتها عليه، ويعلمهم القرآن، ومقاصد الشريعة وجوهرها، وقال الشافعي: الحكمة هي السنة﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أنت العزيز الذي لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، فأنت وحدك واهب العزة ومانعها ﴿الْحَكِيمُ﴾.

* * *

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾

وهل يخالف ما جاء به إبراهيم (ﷺ) من إسلام الوجه لله إلا من حمل نفسه على السفه، ولقد اصطفاه الله في الدنيا بالهداية، وجعله رسولاً، وجعله أبا الأنبياء، وهو في الآخرة في مقام الصالحين، لماذا؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ عندما أمره الله أن يسلم، هدته فطرته ومداركه، وشهادته الأولى على ربوبية الله، فأسلم فوراً لرب العالمين ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ أوصى بهذه الملة أبناءه إسماعيل وإسحاق ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ كذلك أوصى يعقوب بن إسحاق أبناءه، بأن يسلموا وجوههم لرب العالمين، ويعملوا بكل حرص على ألا يلقوا ربهم إلا وهم مسلمون، قولاً وعملاً.

* * *

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾

ولقد زعمتم ـ يا بنى إسرائيل ـ أنكم تسيرون على الدين الذى مات عليه يعقوب (ﷺ)، فهل تعرفون ماذا قال لأبنائه حين ألم به الموت؟ لقد جمع أبناءه، وقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ فأجابوا جميعًا ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ هكذا أجابوا بأنهم على دين الإسلام، الذى هو تسليم الوجه لله، وكامل الانقياد والخضوع له ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك أمة قد مضت وولت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الأمة لها أعمالها التى ستجزى عليها، ولن تنفعكم أعمالها إذا انحرفتم، ولكم أعمالكم التى ستحاسبون عليها، ولن تُسألوا عن أعمالهم، سواء كانت خيرًا أم شرًا ـ كما جاء فى سورة الإسراء ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [١٥]، وهذه قاعدة أرستها الشريعة الإسلامية لتنقض بها ما قاله أحبار بنى إسرائيل بأن الله يتفقد أعمال الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع.

* * *

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾

قال اليهود للمسلمين: ادخلوا اليهودية تهتدوا، وقال النصارى: ادخلوا المسيحية تهتدوا، فقال ـ تعالى ـ لرسوله محمد (ﷺ): قل لهم ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حنيفًا أى مائلاً عن الأديان التى دخلها الشرك إلى دين الإسلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما كان إبراهيم (ﷺ) من المشركين.

* * *

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾

قولوا أيها المؤمنون ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وحده ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ والأسباط هم الأحفاد، والمقصود أبناء يعقوب، أى أحفاد إسحاق وإبراهيم (صلى الله عليهم وسلم جميعًا) ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وآمنا بالتوراة كما أنزلها الله على موسى (ﷺ)، والإنجيل كما أنزله الله على عيسى (ﷺ)، لا

نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ كذلك آمنا بما أنزله الله على جميع الأنبياء لا نفرق بين بعضهم البعض، ونحن لله ـ تعالى ـ مسلمون. هذه الآية ـ من ضمن آيات أخرى فى منظومة قرآنية كاملة ـ ترد على كل من يزعم بحسن نية أو بسوئها، عن جهل أو عن عمد، حالمًا أو غانمًا، أن القرآن لا يقبل الآخر، وأنه يدعو للتعصب، فأين ذلك من عقيدة شعب الله المختار التى بررت لكلّ من اليهود والكاثوليك والپروتستانت استحلال الآخر، أرضه وماله وعمله، واستئصاله إذا لزم الأمر، كما حدث قرونًا طويلة فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا والعالم الجديد (أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية) وحتى اليوم فى فلسطين ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ وبعد أن تقولوا لهم هذه الآيات البينات، إن اتفقوا معكم وآمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وإن أعرضوا ورفضوا، فاعلم يا محمد أنهم منشقون عن أمر الله، وسيكفيك الله شرهم، فهو السميع العليم ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾ دين الله الذى فطر الناس عليه، فتخلل نفوسهم كما تتخلل الصبغة الثوب، إلا المتكبرين والجاحدين، وهل هناك من يفطر الناس أفضل من الله؟ ونحن له عابدون.

* * *

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾

﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ كأقوالهم إنهم أبناء الله وأحباؤه، وإنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى، وإنهم شعب الله المختار، ويزعمون كل ما سبق بصرف النظر عن أعمالهم ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا يقصر الله ربوبيته على أحد دون أحد، ويجزى كل قوم بأعمالهم وليس بأنسابهم، ونحن مخلصون له الدين ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أم تزعمون أن أولئك الأنبياء كانوا يهودًا أو نصارى ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؟ وهذا سؤال استنكارى، فقد بدأت اليهودية بنبى الله موسى (ﷺ)، والنصرانية بنبى الله عيسى (ﷺ)، وأنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا قبل موسى وعيسى (عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ معرفتكم بنبوة محمد (ﷺ) في كتبكم[1]، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وليس الله بغافل عن أعمالكم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾ إن أمة إبراهيم (ﷺ) وأبناءه قد مضت وستحاسب على أعمالها، وستحاسبون أنتم على أعمالكم، فلن ينفعكم إلا عملكم، ولن ينفعهم إلا عملهم.

* * *

(١) نكتفى هنا ببعض آيات من الكتاب المقدس، من العهد القديم: * (قال الرب لموسى): لهذا أقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامى فى فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره به ـ التثنية ١٨ : ١٨ * (قال موسى): أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق فى جبل فاران، جاء محاطًا بعشرات الألوف من الملائكة (القديسين) ـ التثنية ٣٣ : ٢ * وكان الله مع الصبى (إسماعيل)، وسكن فى صحراء فاران، وبرع فى رمى القوس، واتخذت له أمه زوجة من مصر ـ التكوين ٢١ : ٢٠ * الله جاء من أدوم، وجاء القدوس من جبل فاران ـ حبقوق ٣ : ٣ ـ ومن العهد الجديد: * (قال عيسى): سوف أطلب من الآب أن يعطيكم معينًا آخر يبقى معكم إلى الأبد، وهو روح الحق ـ يوحنا ١٤ : ١٦ * (قال عيسى): وأما الروح القدس، المعين الذى سيرسله الآب باسمى، فإنه يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم ـ يوحنا ١٤ : ٢٦ * (قال عيسى): وعندما يأتى المعين الذى سأرسله لكم من عند الآب، روح الحق الذى ينبثق من الآب، فهو يشهد لى ـ يوحنا ١٥ : ٢٦ وكلمة «المعين»، وفى بعض الترجمات «المعزى» وفى أخرى «المساعد» أصلها فى اليونانية (پرقليتوس Periqlytos) وتأويلها أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثانى

سورة البقرة

من الآية ١٤٢ حتى الآية ٢٥٢

obeikandl.com

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾

عندما أوحى الله إلى رسوله محمد (ﷺ) أن يتحول من قبلة بيت المقدس إلى قبلة الكعبة المشرفة، أوحي إليه أن السفهاء سيقولون معارضين مستنكرين تحول القبلة ﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ فقال تعالى: قل لهم يا محمد ﴿ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فالكون كله لله، يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ كذلك جعلناكم أمة وسطًا بين الأمم، ووسطية الإسلام بين مادية اليهودية وروحانية المسيحية ظاهرة لكل من درس الأديان الثلاثة، والشريعة اليهودية شديدة التكاليف وكثيرتها، والعكس فى المسيحية، ويكفينا أن نسرد أحكام القتل فى اليهودية[1]، وعلى أمة الإسلام ألا تتطرف، سواء فى المغالاة أو الإفراط فى إقامة الدين، أو التفريط فيه، وتشهد على الأمم الأخرى بعدلها ووسطيتها، ويكون الرسول (ﷺ) عليها شهيدًا ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ وما شرعنا لك فى البداية التوجه إلى بيت المقدس ﴿ إِلَّا

(١) أمثلة من العهد القديم على العقوبة بالقتل: من سفر الخروج: من يعبد أوثانًا وآلهة غير الله يُقتل. (وذلك الأمر متكرر عشرات المرات) ـ من يقتل يُقتل (٢١: ١٢) ـ من يضرب أباه أو أمه يُقتل (٢١: ١٥) ـ إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات، يُرجم الثور... ويُقتل صاحبه (٢١: ٢٨-٢٩) ـ لا تدع ساحرة تعيش (٢٢ - ١٨) ـ كل من ضاجع بهيمة حتمًا يقتل (٢٢-١٩) ـ من يقرب ذبائح لآلهة غير الرب وحده يُبد (٢٢-٢٠) ـ كل من يقوم بعمل فى يوم السبت يقتل حتمًا (٣١: ١٥)، وذكر سفر اللاويين الإصحاح ٢٠ أكثر من عشر جرائم يُعاقب عليها بالقتل، منها من شتم أباه أو أمه يقتل، ومن يقدم ابنه قربانًا لأحد الأوثان يقتل، وإذا تغاضى الشعب عن ذلك يُستأصل، وكل من تبع أصحاب الجان يُقتل، وإذا ضاجع رجلُ ذكرًا مضاجعة امرأة فكلاهما يقتلان، وإذا زنى رجل مع امرأة قريبه فالزانى والزانية يقتلان، وإذا عاشر رجل بهيمة أو قاربت امرأة بهيمة ذكر يُقتلون جميعهم، وأى رجل أو امرأة يمارس الوساطة مع الجان أو مناجاة الأرواح يُقتل، وجاء فى سفر التثنية الإصحاح ١٣ الأمر بقتل الأخ أو الابن أو الابنة أو الصديق الذى يدعوك لعبادة آلهة الشعوب الأخرى (٩)، ثم فى الآية (١٢) وما يليها الأوامر بتدمير المدن التى تعبد الأصنام.

كذلك الإسلام وسط بين اليهودية التى تقدس قرابة الدم، والمسيحية، طبقًا لتنكر المسيح لوالدته كما جاء فى الأناجيل، وطبقًا لنصوص عديدة أخرى، والإسلام وسط فى التجارة والأعمال المالية بين اليهودية التى تحرم إقراض بنى إسرائيل بالربا، وتحلل الربا من الأغيار، والمسيحية التى تكره الربح والتجارة الحلال، حتى جاء فى الإنجيل أن الغنى لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط (متى ١٩: ٢٢-٢٥).

﴿لِنَعْلَمَ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ﴿..لِنَعْلَمَ..﴾، وهى كثيرة فى القرآن، وقد أجمع المفسرون أن علم الله ـ تعالى ـ قديم، وكل ما يحدث فى الكون إنما يحدث بعلمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فقال محمد عبده: [جرت عادة العرب فى لغتها أن تنسب إلى الرئيس والكبير ما يحدث بأمره وتدبيره، يقولون: فتح الأمير البلد (أو بنى الطرق والسدود) وكثيراً ما يقولون هذا والأمير ليس واحداً من العاملين، فهو أسلوب معهود: إذا أريد إسناد الفعل إلى الجمهور أسندوه إلى المقدم فيهم، فمعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إلا ليعلم المؤمنون، ويدخل فى هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا..(٢٤٥)﴾ أى يعطى عباده المحتاجين. ثم وجه آخر ـ جرى عليه مفسرنا (جلال الدين السيوطى) وغيره ـ (واللفظ من هنا للمراغى الذى وافقهما): المراد بالعلم فى مثل هذا علم الظهور والوقوع، ذاك أنه ـ تعالى ـ يعلم قبل وقوع الأشياء أنها ستقع، ويعلم (عند) وقوعها، ويترتب على ذلك الجزاء من ثواب وعقاب]، وهناك وجه رابع، وهو أن الله ـ تعالى ـ لا يكتفى بعلمه ليحاسب البشر، ولكن يريدهم أن يعلموا حتى لا يحتج أحد، وإلا لكان بوسعه أن يرسل البشر لمثواهم الأخير يوم الحساب دون أن يعيشوا حياتهم الدنيا، ففى علمه القديم ماذا هم فاعلون، ووجه أخير، وهو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينفى حجة أن علمه القديم يمثل إجباراً للملحدين والمشركين والمنافقين على أعمالهم، وهناك أوجه كثيرة أخرى أفاض فيها الرازى، والله أعلم. ويكون المعنى: إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام هو بمثابة اختبار يكشف به الله من يتبع الرسول ومن يرتد على عقبيه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وإن الله يعلم أن تحويل القبلة من الأمور الشاقة على النفس إلا على الذين هداهم الله فلانت أنفسهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أما عن صلاتكم نحو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، فإن الله لن يضيعها وأنتم مثابون عليها؛ لأن الله هو الرءوف الرحيم بعباده.

* * *

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾

قال الزمخشرى: [﴿قَدْ نَرَى﴾ تعنى كثرة الرؤية]، فيكون المعنى إننا نرى كثرة تطلع وجهك فى السماء للتوجه نحو قبلة أخرى ترضاها بدلاً من بيت المقدس ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هنا الأمر بالتحول إلى البيت الحرام في مكة، سواء كانت الصلاة في المدينة شمال مكة، أو في مكة نفسها، أو في أي مكان آخر ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وإن أهل الكتاب الذين ينكرون عليك التحول من قبلة بيت المقدس قد عرفوا أنكم أتباع محمد (ﷺ) أهل الكعبة، وأن هذا هو الحق من ربهم، ولكنهم يقصدون فتنتكم، والله يعلم نواياهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾

إن إنكار ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هو استكبار وجحود، حتى إن جئتهم بكل الحجج القطعية ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فهم لا يريدون ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ ولن تتبع قبلتهم بعد أن أوحى الله لك بالإسلام، وأرضاك الله بقبلة مكة، وهم لن يجتمعوا على وجهة واحدة للعبادة، والقبلة هنا تحتمل قبلة الصلاة، وتحتمل أن تكون رمزًا للدين كله ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولو اتبعت هواهم في الدين بعد العلم الذي آتيناك لأصبحت مثلهم من الظالمين.

* * *

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾

الذين آتيناهم علم الكتاب، يعرفون محمدًا كما يعرفون أبناءهم[1].

---

(١) ذكر الباحثون عدة آيات في العهد القديم من الكتاب المقدس، فيها بشارة أو إشارة إلى محمد (ﷺ) ورسالته الخاتمة، نذكر في كل مناسبة بعضًا منها:

● جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٤٩: ١-١٠: ثم استدعى يعقوب أبناءه وقال: التفوا حولي لأنبئكم بما سيحدث لكم في الأيام المقبلة...

لا يزول صولجان الملك من يهوذا ولا مشترع من صلبه حتى يأتي شيلوه فتطيعه الشعوب.

وقال المتخصصون: إن تأويل شيلوه بالعبرى يعني رسول الله، ولا تنطبق نبوءة يعقوب (ﷺ) إلا على محمد (ﷺ).

● جاء في سفر التثنية الإصحاح ١٨: ١٨: فقال الرب: لهذا أقيم لهم نبيًا من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به.

● وجاء أيضًا: أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق في جبل فاران ـ سفر التثنية الإصحاح ٣٣: ٢. =

كثيراً ما أخبرنا المولى ـ عز وجل ـ أن أحبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون جيداً صفة محمد (ﷺ) وأمر رسالته كما يعرفون أولادهم، ولكن فريقاً منهم ليكتمون هذه الحقائق تعصباً وحسداً، واستمساكاً بالسلطة التى لديهم على اليهود والمسيحيين، والحق هو ما أمرك الله به من التوجه إلى قبلتك وهى الكعبة المشرفة، فلا تتردد أو تشك، ولا تبال بالمعارضين.

* * *

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾

- ● وجاء فى سفر إشعياء الإصحاح ٤٢ : ١ ـ ٦ : هو ذا عبدى الذى أعضده مختارى، الذى سُرَّت به نفسى. وضعت روحى عليه ليسوس الأمم بالعدل، أنا هو الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم.

لم يخاطب أحد من أنبياء بنى إسرائيل الأمم، ولا حتى عيسى (ﷺ)، وقد جاء فى الإنجيل أنه لم يبعث إلا لخراف بنى إسرائيل الضالة.

- ● وجاء فى سفر حبقوق: قد أقبل الله من أدوم، وجاء القدوس من جبل فاران ـ الإصحاح ٣: ٣ ـ وجبل فاران هو الذى عاش بجواره إسماعيل (ﷺ) فى مكة.

ومن آيات العهد الجديد من الكتاب المقدس ذكروا ما يلى:

جاء فى أنجيل يوحنا:

- ● وسوف أطلب من الآب أن يعطيكم معيناً آخر يبقى معكم إلى الأبد وهو روح الحق ـ ١٤ : ١٦.
- ● وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى، فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم ـ الإصحاح ١٤ : ٢٦، وفى ترجمة أخرى: وأما الروح القدس، المعين الذى سيرسله الآب باسمى.
- ● ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذى من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لى ـ ١٥ : ٢٦، وفى ترجمة أخرى: وعندما يأتى المعين الذى سأرسله لكم من عند الآب، روح الحق الذى ينبثق من الآب، فهو يشهد لى.
- ● لكنى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن انطلق؛ لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إذا ذهبت أرسله إليكم ـ الإصحاح ١٦ : ٧، وفى الترجمة الأخرى المعين بدلاً من المعزى.
- ● ما زال عندى أمور كثيرة أقولها لكم، ولكنكم الآن تعجزون عن احتمالها، ولكن عندما يأتيكم روح الحق يرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه لا يقول شيئاً من عنده، بل يخبركم بما يسمعه ـ ١٦ : ١٢، ١٣. وكما سبق، «المعين»، أو «المعزى»، أو «المساعد» هى ترجمة بركليتوس اليونانية، التى تأويلها أحمد.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ تعددت التفسيرات، فمنها أن الكعبة المشرفة هى قبلتك وقبلة أمتك، وكذلك لكل أمة قبلة تتجه إليها فى صلاتها حسب شريعتها، وقيل إن قبلتك الأولى لبيت المقدس، وقبلتك الثانية والنهائية مكة، وكلٌ من عند الله، وقيل غير ذلك، والله أعلم، والفضل بينكم هو فى التنافس على فعل الخيرات ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو القادر على جمعكم وحصر أعمالكم أينما كنتم، وإن ذلك على الله يسير ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ هذا الأمر بالتوجه إلى الكعبة فى الصلاة تكرر خمس مرات للرسول (ﷺ) وللمسلمين، لمن كان فى المدينة ومن كان فى غيرها، ولمن كان على سفر أو كان مقيمًا فى أى مكان، وذلك للتأكيد والتثبيت ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وإنه للحق الموافق لحكمة الله، وهو يعلم ما تعملون ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ من أى بلد خرجت للسفر فول وجهك للكعبة، وحيثما كنتم مقيمين أو مسافرين، فولوا وجوهكم للبيت الحرام[1] ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ قال بعض اليهود قبل تحويل القبلة: لقد جحد محمد ديننا واتبع قبلتنا، بينما قال مشركو العرب: لقد ادعى ملة إبراهيم وخالف قبلته، فقال الله له: اتجهوا إلى الكعبة حيثما كنتم حتى لا يكون لليهود ولمشركى العرب حجة عليكم ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ إلا الذين رفضوا رسالة محمد (ﷺ) جحودًا وتكبرًا، فلا تبالوا بهم، ولا تخالفوا أمرى ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ حتى أتم نعمتى عليكم فتهتدوا بطاعتى، والرجاء فى ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ يتعلق بالناس، فلعلهم يهتدون بأنعم الله عليهم.

* * *

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾

ومن إتمام النعمة، أن الله تفضل علينا، فبعث فينا محمدًا (ﷺ) رسولاً منا ـ نحن العرب ـ ليتلوا علينا آيات الله البينات، ويطهر نفوسنا، ويعلمنا القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الحكمة فى

(١) قال مراد هوفمان: إنه لأمر جدير بالتدبر أن يأمر الله المسلمين بأن يولوا وجوههم فى صلاتهم إلى مكة التى أخرجت الرسول (ﷺ) ومن معه، والتى كانت فى ذلك الوقت مركز الأصنام والأوثان فى الجزيرة العربية، وكان المسلمون قلة مستضعفة بالمدينة يطمع فيهم كل طامع، لا يرى أحد لهم مستقبلاً ولا حتى بقاء، وما كان أمر تحويل القبلة هذا ليحدث، إلا إذا كان وراءه عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم.

العموم هى حسن تقدير الأمور وحسن التصرف فيها، وفى الشرع؛ قال الشافعى: هى السنة، وقيل: هى مقاصد الشريعة وجوهرها ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فأكثروا من ذكرى واعملوا على التقرب لى بحمل الأمانة التى كلفتكم بها، عند ذلك أذكركم بالمغفرة والرحمة والفضل ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾

يأيها الذين آمنوا سيصادفكم فى حياتكم الدنيا الكثير من أنواع البلاء والمحن، فواجهوها بالصبر، وباللجوء إلى الصلاة وكثرة الدعاء، ولا تجزعوا فإن الله مع الصابرين ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ لا تمنعكم مخافة الموت من الجهاد فى سبيل الله، فإن الذين يتشرفون برتبة الاستشهاد فى سبيل الله لا يموتون، بل ينتقلون إلى الحياة الحقيقية، ولكنكم لا تشعرون بذلك، وجاء فى الحديث «الجهاد ماض فى أمتى إلى يوم القيامة» رواه البخارى.

* * *

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾

الدنيا دار بلاء - يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] والكبد هو الشدة والمشقة - ومن ضمن أنواع البلاء بعض الخوف والجوع ونقص الأموال، بل والأنفس، سواء بالموت أو الاستشهاد، ونقص الثمرات.. إلخ، وبشر يا محمد الصابرين الذين إذا حلت بهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ما نحن إلا خلق الله، فلن نيأس ولن نضيع، ونحن له راجعون ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أولئك عليهم رحمات وطيبات وفيوضات ربانية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ وجاء فى الحديث «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها» رواه مسلم، وجاء أيضاً «ما يصيب المؤمن

من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهمه، إلا كُفِّرَ به من سيئاته» رواه مسلم.

* * *

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾

فى هذه الآية استمرار لشرع إبراهيم (ﷺ)، ورأى فيها بعض المفسرين إشارة لفتح مكة. تعنى الآية عند من قالوا بوجوب السعى بين الصفا والمروة أن المقصود بالتطوع هو الاعتمار، وقال آخرون منهم: إن المقصود هو التطوع بالعمرة بعد الحج والعمرة المفروضين، أما من قالوا بأن السعى ليس بفرض، فاعتبروا التطوع هو السعى، و﴿جُنَاحَ﴾ هو الميل للإثم، وقال الماتُريدى: [قيل: كان بالصفا وثن وبالمروة وثن، وقيل: كان بينهما أوثان، فتحرج بعض المسلمين من السعى بينهما، ولكن الأصل فى السعى هو سعى هاجر للبحث عن الماء لابنها إسماعيل (ﷺ)، فسن الرسول (ﷺ) السعى عودة للأصل فيه].

وقد أجمل الزمخشرى الأقوال فى السعى كالتالى: [اختلف فى السعى، فمن قائل هو تطوع بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل والترك. . . . لقوله ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ ويروى ذلك عن أنس وابن عباس وابن الزبير، وعن أبى حنيفة أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم، وعند الأولين لا شىء عليه. وعند مالك والشافعى: هو ركن لقوله (ﷺ): «اسعوا؛ فإن الله كتب عليكم السعى» وقد خرَّج هذا الحديث ابن حجر، وذكر أن فى رواته ضعيفًا].

أما الطبرى، فقال: [الاختلاف فى ذلك بين أهل العلم على أوجه: فرأى بعضهم أن تارك الطواف بينهما تارك من مناسك حجه ما لا يجزيه منه غير قضائه بعينه، ورأى بعضهم أن تارك الطواف بهما يجزيه من تركه فدية، ورأى آخرون أن الطواف بهما تطوع، وإن تركه تارك لم يلزم بتركه شىء]، ثم يختار الطبرى، فيقول: [والصواب عندى أن الطواف بهما فرض واجب، والأفضل الرجوع لكتب الفقه فى ذلك].

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾

إن الذين يكتمون ما علمهم الله من البينات ومن هداه في كتبه ووحيه عن البسطاء، يلعنهم الله، ويلعنهم من اهتدى بهدى الله، ويستثنى رب العزة الذين تابوا توبة نصوحًا ورجعوا إلى الحق وشهدوا بما عرفوا، هؤلاء يتقبل الله توبتهم ويدخلهم في رحمته. وإن كانت الآية قد نزلت في بعض أهل الكتاب، فلا يعني هذا أن المسلمين، وخاصة علماءهم، مستثنون منها.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) ﴾

أما الذين استمروا في الكفر حتى ماتوا عليه، فجزاؤهم هو لعنة الله وملائكته والناس أجمعين، وسيخلدون في جهنم وبئس المصير، ولن يخفف عنهم العذاب، دون إمهال أو تأجيل بعد يوم الحساب.

* * *

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾.

تتكرر آيات القرآن التي تشهد وتؤكد على التوحيد، الذي بدونه تطيش موازين الكون المادية والمعنوية، والله هو الرحمن الرحيم، فهو منبع الرحمة وواهبها وقابضها، كذلك تكررت دعوة الله ـ تعالى ـ للبشر بالنظر والتدبر في ملكوت الله، إلى إبداع السماوات والأرض وما فيهما من دلائل القدرة الإلهية، وتناوب الليل والنهار، وتوزيع ماء الحياة على سطح الكرة الأرضية، ثم إعطائه البحار والأنهار خواصًا تمكن البشر من صناعة المراكب والسفن ـ بخواصها هي الأخرى التي أودعها الله فيها، والتي تمكنها من ركوب البحر ـ التي تجوب البحار بما تحمله من مسافرين ومن بضائع لنفع الإنسان، وإلى الماء الذي ينزل من السماء في دورات متتابعة تبدأ بتبخر الماء ثم تكوّن السحاب ثم هطول الأمطار، وهو ما يبعث

الحياة على سطح الأرض، وإلى حركة الرياح وما تؤدى إليه من منافع متعددة، كل هذه الآيات تدل على وجود إله خالق قادر، لقوم يعقلون.

* * *

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾

بعد كل هذه النعم والآيات، يتخذ بعض الناس أندادًا من دون الله، وقد يكون هذا الند صنمًا أو مالاً أو جاهًا أو فيلسوفًا أو حاكمًا ظالمًا، يحبونهم ويسعون إليهم كما لو كانوا آلهتهم، ولكن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فالمؤمن أشد حبًا لله، ولو يبصر الذين ظلموا، فسيرون العذاب الذى هم ساعون إليه، وسيرى من اتخذ إلهه هواه أن القوة كلها بيد الله، وأن عذابه شديد. يومئذ يتخاصم أهل النار، ويتبرأ المتبوعون من أتباعهم، حين يرون العذاب وتنقطع بينهم الروابط والصلات، فكلٌ منهم يقول نفسى نفسى، ويومئذ يتحسر التابعون بإفساد على أنهم باعوا آخرتهم بدنيا أسيادهم الذين اتبعوهم، ويقولون لو عدنا إلى الدنيا ثانية فسنتبرأ منهم كما تبرأوا منا. كذلك يريهم الله ما عملوا حسرات وآهات فى نار لا خروج منها.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) ﴾

يوجه الله الناس جميعًا إلى أهمية الأكل الحلال، وبمعناه الواسع هو الرزق الحلال والطعام الحلال، ويحذرهم من اتباع الشيطان، واستخدمت الآية كلمة ﴿ يَأْمُرُكُم ﴾ لما فى غوايته من شدة ونفوذ، خاصة على من يتبعون أهواءهم، فهو لا يأمر إلا بالسوء والقول والعمل الفاحش الذى يخرج عن الشرع وعن الفطرة السليمة، ويأمر بالمعاصى والآثام، كما يوسوس بالافتراء على الله.

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾

منحنا الله العقل كى نتدبر ونتفكر فى كل الأمور، وقبل العقل منحنا الفطرة السليمة، وأخذ شهادتنا على توحيده، فكيف يلغى بعض الناس عقولهم، ويقولون إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، حتى لو كان آباؤهم فى ضلال؟!.

* * *

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾

نعق تعنى صاح، ولهذا المثل عدة تأويلات، ذكر الطبرى اثنين منها، أولهما ملخصه: أن الكافر لا يعى من دعوته إلى الهدى إلا ذبذبات الأصوات، ولا يفقه منها شيئًا، وثانيهما ملخصه: أن الكافر يدعو إلهه الذى لا يصله من الدعاء إلا ذبذبات الأصوات، وليس بوسعه أن يفهمها ولا أن يستجيب لها، واختار الطبرى التأويل الأول.

أما التأويل الثالث، فهو أن الكافر يردد كلام آبائه وكلام قائده فى الكفر ترديداً أعمى لا يتجاوز الحناجر ولا يفهم منه شيئًا، فهو لا يُعمل ما حباه الله به من نعم الفطرة والعقل والمدارك، فكأنما كان أيضًا أصم أبكم أعمى.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

الأصل فى شريعة الإسلام الإباحة، ففى الطعام مثلاً، أباح الله لنا أن نأكل من جميع طيبات الأرض وحلالها، على ألا ننسى شكر المنعم إن كنا نعبده بحق، قال محمد عبده: [لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفًا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله. فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقًا وأصنافًا، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها، كالبحيرة والسائبة عند العرب[1]، وكبعض الحيوانات عند غيرهم، وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ تعذيب النفس واحتقارها وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أن لا حياة للروح إلا بذلك، وأن الله ـ تعالى ـ لا يرضى منا إلا إحياء الروح، وكان الحرمان من الطيبات على

(١) سيأتى شرحها فى الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

أنواع، منها ما هو خاص بالقديسين أو بالرهبان والقسيسين، ومنها ما هو عام. وكل هذه الأحكام والشرائع قد وضعها الرؤساء (رؤساء الكنائس)] حرم الله علينا ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ أكل الحيوان أو الطير الميت ـ أى غير المذبوح ـ باستثناء السمك والجراد، والميتة تشمل المنخنقة، أى المخنوقة، والنطحية، أى التى نطحها حيوان حتى ماتت، والمتردية، أى التى سقطت من ارتفاع فماتت، وما أكل حيوان آخر ﴿ وَالدَّمَ ﴾ شرب الدم المسفوح من الحيوان عند ذبحه ﴿ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ﴾ وهناك اجتهادات متنوعة للفقهاء والعلماء في سبب تحريم لحم الخنزير، قد تصيب وقد تخطئ، ولا يتوقف امتثالنا للتحريم عليها ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ ما ذكر عند ذبحه اسم غير الله، كأن يذبح باسم الأصنام ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فمن ألجأته الضرورة القصوى كالإكراه أو الموت جوعًا فلا ذنب عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال الفقهاء: الضرورات تقدر بقدرها، فلا يتجاوز من اضطر ولا يتعدى.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) ﴾

إن الذين يخفون ما أنزل الله فى كتبه، من العلماء وغيرهم، فى مقابل ثمن قليل فى دنياهم، إنما يشترون نارًا يأكلونها يوم الحساب، يوم لا يسمع الله حججهم ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم برحمته، ويلقون بأنفسهم فى العذاب الأليم، فقد باعوا الهدى والمغفرة بالضلالة والعذاب، فياللعجب من صبرهم على النار الذى فاق صبرهم على تحمل قول الحق الذى جاء فى كتاب الله، ومن اختلف فى ذلك الحق جحودًا وتكبرًا، فقد باعد فى شقاقه عن المجادلة القويمة التى يُقصد بها الاهتداء.

* * *

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

لقد أكثر الناس الجدال فى أمر اتجاه القبلة وكأنها هى كل البر، والبرّ اسم يجمع كل أنواع الخير والطاعات والعمل الصالح، فنزل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ثم بين الله وجوه البر فى العقيدة والشريعة، أى الإيمان الذى يصدقه العمل ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الإيمان بالله الواحد الأحد، الذى سيبعث الناس ليوم الحساب، والذى خلق الملائكة، وهى فى عالم الغيب بالنسبة للبشر، والذى أنزل الكتب السماوية وأرسل النبيين، ثم بين الله الأعمال التى تُصدِّق على إيمان المرء ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أى رغم حبه الشديد للمال إلا أنه ينفقه لوجه الله على ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ﴾ أرجح الأقوال فى المسكين أنه الذى أسكنته وأقعدته حالته وقلة حيلته عن السعى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفى تحرير العبيد ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ فأداها على أحسن ما يكون، وانتهى عما تنهى عنه من الفحشاء والمنكر، وذكر بها الله فى كل أوقاته، فسعى للتقرب إليه ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والحرص على أداء الزكاة، ونلاحظ هنا أن الله ذكر الصلاة مرة واحدة، بينما ذكر إنفاق المال مرتين، وقد كرر القرآن الأمر بالزكاة والإنفاق فى سبيل الله أكثر مما كرر الأمر بالصلاة، وكلما أمر بالصلاة أمر معها بإيتاء الزكاة إلا فى مواضع لا تتعدى عدد أصابع اليد، ثم انفرد الأمر بالإنفاق والزكاة فى مواضع كثيرة. ثم أكملت الآية أعمال البارّ: إذا عاهد وفى ولم يغدر، ثم كان من ﴿الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الشدة والفقر والمعيشة الصعبة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ كل ما يضر الإنسان ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ حين مجاهدة العدو، أولئك هم الذين صدقوا فى إيمانهم المتقون لربهم.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾

كلمة القصاص فى اللغة تفيد المماثلة والمساواة، وغرض الآية تحقيق المساواة بين العقاب والجريمة، كمّا وكيفًا، أى يُفعل بالجانى مثلما فعل بالمجنى عليه ـ كما بينت الآيات: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا ...﴾ [غافر: ٤٠]،

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ...﴾ [الشورى: ٤٠]، وكما بين الحديث «المسلمون تتكافأ دماؤهم» رواه أبو داود ـ وقد نزلت الآية لتنهى وضعًا ساد فى بلاد العرب، بل وفى العالم، واعتمد على قوة القبيلة أو ضعفها، فإذا قُتل من القبيلة القوية عبد، طالبوا بقتل حر من القبيلة الضعيفة، وربما رئيسها، وقتلوا الجملة بالواحد. وقال محمد عبده: [الغرض من الآية شرعية القصاص بالعدل والمساواة، وإبطال ذلك الامتياز الذى للأقوياء على الضعفاء[1]، فإذا قتل حرٌّ حرًّا يُقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة ولا أكثر من واحد، وإذا قتل عبد عبدًا يقتل هو به لا سيده ولا أحد الأحرار من قبيلته، وكذلك المرأة إذا قَتَلت تُقتل هى ولا يُقتل واحد فداءً عنها، خلافًا لما كانت عليه الجاهلية فى ذلك كله، فالقصاص على القاتل نفسه أيًا كان، لا على أحد من قبيلته] ﴿... فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ...﴾ فإذا عفا ولى المقتول، أو واحد من أوليائه، سقط القصاص، وعلى القاتل وأوليائه أن يؤدوا الدية بإحسان، ودون مطل ولا تسويف، وذلك الحكم هو تخفيف ورحمة من رب العالمين، فمن اعتدى بعد التسوية فله عذاب أليم فى الآخرة، ويُحاسب على فعله فى الدنيا طبقًا لما سبق، ثم بين الله حكمة القصاص قائلاً ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ ونكرر ثانيًا قول محمد عبده: [الغرض من الآية شرعية القصاص بالعدل والمساواة] وهناك الدية، وهناك أيضًا العفو.

* * *

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢)﴾

هذه الآيات تبين شرعية الوصية، وقال مخلوف: [فُرض الإيصاء فى بدء الإسلام للوالدين والأقربين على من حضره الموت وله مال، ثم نُسخ بآية المواريث، وبحديث «لا وصية لوارث» رواه الترمذى، وهو مذهب جمهور الأئمة، وذهب ابن عباس إلى أن المنسوخ وجوب الوصية للوارثين منهم، وبقى الوجوب فى حق من لا يرث منهم، وهو قول الحسن ومسروق وطاووس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد]، وقال أبو زهرة: [لقد قال

(١) تمارس هذا «الامتياز» اليوم الدول القوية على الدول الضعيفة! فعلى سبيل المثال ما تفعله الولايات المتحدة فى كلٍّ من أفغانستان والعراق وباكستان، مع فارق أن تلك الدول لم تهاجمها، وبالطبع ما تفعله إسرائيل مع الفلسطينيين.

الأكثرون من الفقهاء: إن هذه الآية إنما يؤخذ بها إذا كان هؤلاء غير وارثين، كما كان الأمر في أول الإسلام إذا أسلم وأبواه مشركان، وكما كان من بعد من تزاحم الورثة أو تقديم بعضهم على بعض، كأن يكون له أخت شقيقة أو لأب، وله ابن، فإن الأخت لا ترث وهي من الأقربين، وكذلك أخوه؛ لأن الابن حجبه، ففي الحال إذا كان الأخ ذا حاجة كمتقدم السن فإنه يوصى له. ولذا قال هؤلاء الغلبة من الفقهاء إنه يجمع بين آية الوصية وآية المواريث، وتكون آية الميراث مخصصة لآية الوصية بأنها في غير الوارثين من الأقارب. هذا ما عليه الجمهرة العظمى من الفقهاء، ولا يقال إن آية الميراث نسخت آية الوصية؛ لأنها بقيت شريعتها في غير الوارثين، وهي في ذاتها يسر لما عساه يكون من حاجة عند بعض الأقارب الأقربين الذين لم يصل إليهم تقسيم الميراث ويكون هذا هو العدل، وهو البر والرحمة بذوي قرباه. ويرى بعض الفقهاء أنه لا تعارض لا في الكل ولا في الجزء بين آيات الميراث، وآية الوصية، فآية الوصية في الثلث يوصى به لمن يراه أشد حاجة وأقوى قرابة، والميراث في الثلثين، ولقد قال (ﷺ): «إن الله تصدق عليكم في آخر أعماركم بثلث أموالكم، فضعوه حيث شئتم - رواه ابن ماجه]، وقال المراغي: [قدروه (قيمة مال الوصية) بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين، ورُوي عن بعض الصحابة أن هذه الوصية إنما تكون لهم ما لم يكونوا وارثين؛ لقوله: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث» رواه ابن ماجه، وجوز بعض الأئمة الوصية للوارث، بأن يخص بها بعض من يراه أحوج من الورثة، كأن يكون بعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا عاجزًا عن الكسب، فمن المصلحة ألا يسوىَّ بين الغني والفقير، والقادر عن الكسب ومن يعجز عنه]، وقال محمد عبده: [وصفوة القول أن الآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لا تعارضها بل تؤيدها، ولا دليل على أنها بعدها، ولا بالحديث لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهي محكمة وحكمها باق. ولك أن تجعله خاصًا بمن لا يرث من الوالدين والأقربين كما روي عن بعض الصحابة، وأن تجعله على إطلاقه] ومن أراد الاستزادة فعليه بكتب الفقه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل وطبقًا للعرف الذي جرى عليه المتقون، وحدده الرسول (ﷺ) بأن يقل عن الثلث ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ هذه الوصية واجبة التنفيذ دون تغيير ولا تبديل، أما إذا حاول البعض تبديلها فإن الله السميع العليم سيحاسبه على إثمه ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ فمن خاف من الموصي ميلاً عن الحق بسبب الخطأ أو التعمد ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الموصي والموصى لهم ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا وزر عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾

فرض عليكم أيها المؤمنون الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من أتباع الديانات السابقة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لعل هذا يهذبكم ويساعدكم على تقوى الله ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ هى أيام شهر رمضان ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فللمريض وللمسافر أن يفطر ويقضى الصوم بعد برئه من المرض أو رجوعه من السفر ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ تعددت أقوال المفسرين، فقال الطبرى: [أولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ منسوخ بقول الله تعالى ذكره ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ (١٨٥) ﴾]، بينما قال محمد عبده: [فالمراد بالذين يطيقونه هنا الشيوخ والضعفاء والزمنى[1] الذين لا يرجى برء أمراضهم، ونحوهم كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة، إذا كان الصيام يشق عليهم بالفعل، وكانوا يملكون الفدية]، وقال المراغى: [الذين يطيقونه هم الشيوخ الضعفاء والزمنى الذين لا يرجى برء أمراضهم، والعمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة، والحبلى والمرضع إذا خافتا على ولديهما، فكل هؤلاء يفطرون وعليهم الفدية، وهى طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم عن كل يوم يفطرونه] ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ فمن زاد فى الفدية بأن أطعم أكثر من مسكين فهو خير له وأكثر فى الثواب والمغفرة، ورأى آخرون أن التطوع هو فى زيادة أيام الصوم ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ تحتمل الآية معنى أن الصيام خير من الفطر ودفع الفدية، وتحتمل أن فى صيام التطوع الزائد عن الفرض خيراً لكم، وقال محمد عبده إن الصيام - كفرض - خير لكم إن كنتم تفقهون.

* * *

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾

(١) الزمنى: هم المرضى بأمراض مزمنة، لا يبرأون منها.

شهر رمضان بدأ فيه نزول القرآن على محمد (ﷺ) فى ليلة القدر لهداية البشر، وظل يتنزل عليه ثلاثة وعشرين عامًا، فيه آيات بينات من الهدى، تفرق بين الحق والباطل، فمن شهد هذا الشهر وحضره سليمًا معافى ومقيمًا مستقرًا، فيجب عليه الصيام ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يفطر وعليه قضاء ما أفطره من أيام الصوم، فالله لا يريد أن يشق عليكم فى التكاليف، وإنما يريد بكم اليسر والاستمتاع بالطاعة والصيام، وهناك من قال بوجوب إفطار المريض والمسافر، وهناك من قال إنها رخصة، ومعلوم من السيرة النبوية أن هناك من صام من الصحابة ومن أفطر فى السفر، ولم يرفض الرسول (ﷺ) فعل أىٍّ من الفريقين، ومعلوم أيضًا أنه فى أحد الأيام اضطروا لأعمال مجهدة قام بها المفطرون، فقال الرسول (ﷺ): «ذهب المفطرون بالأجر» متفق عليه ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تكملوا صيام عدد أيام شهر رمضان للذى أفطره فى بعضها بسبب المرض أو السفر، وتكبروا الله على هدايته لكم، ولعلكم تصبحون ممن يستحقون درجة الشاكرين.

* * *

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾

وإذا سألك ـ يا محمد ـ عبادى قائلين: هل الله قريب منا فنناجيه أم بعيد عنا فنناديه؟ فقل لهم إنى أقرب إليهم من حبل الوريد؛ وأجيب دعوة من يدعونى، وليس فى الكون غيرى من يدعو الناس ويستحثهم على سؤاله، فأنا الأولى بأن يسلكوا سبيلى، ويؤمنوا بى، فلعلهم يبلغون بذلك درجة الراشدين الذين يجمعون الإيمان والعمل الصالح، بإتيان الأوامر واجتناب النواهى. جاء فى الحديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» رواه مسلم.

* * *

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾

كان المسلمون قبل نزول هذه الآية لا يقربون زوجاتهم إذا ناموا بعد المغرب، أو بعد صلاة العشاء، وكانوا كذلك لا يأكلون ولا يشربون، وكان ذلك صعبًا وشاقًا عليهم، فنزلت ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ و ﴿الرَّفَثُ﴾ كناية عن الجماع ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أى ستر وسكن كلّ منكم للآخر ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الاختيان من الخيانة، مثل الاكتساب من الكسب، فيه شدة وصعوبة، والمعنى كنتم تلاقون شدة وصعوبة فى اضطراركم لخيانة أنفسكم بإتيان النساء أو بالأكل والشرب ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ فرخص الله لكم فى إتيان النساء، وفى الأكل والشرب حتى يظهر الضوء الأبيض من الفجر ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ إلى غروب الشمس ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فسواء أكان الاعتكاف فى العشر الأواخر من رمضان أو سواها فإنه يحرم عليه ـ إذا خرج المعتكف من المسجد إلى بيته لأمر من الأمور ـ أن يُقَبِّل أو يضُم أو يجامع؛ لأن المباشرة تعنى التقاء البشرتين ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ هذه هى أحكام الله فقفوا قبلها، لعلكم تصبحون من الأتقياء.

* * *

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾

لا يحل لأحدكم أخذ مال الآخر ظلمًا، ولا ترشوا الحكام لتستولوا على أموال الناس إثمًا وعدوانًا.

* * *

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾

يسألونك يا محمد عن ﴿الأَهِلَّةِ﴾ وهى جمع هلال، والمقصود السؤال عن دورة القمر الشهرية، لماذا يتغير شكله على مدار الشهر فى الوقت الذى لا يتغير فيه شكل الشمس؟ فقل لهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ خلقها الله ليعلم الناس بها أوقات الصيام والفطر والحج، وآجال العقود والديون وأحوال النساء من عدة وحيض وحمل، وغير ذلك من المعاملات

﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ ليس من أعمال الخير دخول البيوت من ظهورها، فقد كان ناس من الأنصار، وقيل من الحجاز بصفة عامة، إذا أحرموا بالحج فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فبين الله ـ تعالى ـ أن هذا ليس برّا، وإنما البر هو تقوى الله ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ واتقوا الله كما أمركم، لعلكم تصبحون من المفلحين.

* * *

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾

هذه الآية تبيح للمسلمين قتال من يقاتلهم، وتنهاهم عن الاعتداء على المسالمين الذين لم يبدأوهم بعدوان؛ لأن الله لا يحب المعتدين.

* * *

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾

اقتلوا الذين بدءوكم بالقتال ﴿ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ حيث وجدتموهم ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أخرجوهم من مكة بلدكم التى اضطروكم إلى الخروج منها ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ يسعى الكارهون للإسلام وللمسلمين ـ قديمًا وحديثًا ـ إلى فتنة المؤمنين عن دينهم، وهذا أسوأ من قتل المسلمين، فالمسلم المقتول فى سبيل دينه شهيد وهو فى الجنة، أما المسلم المفتون عن دينه، فلا يعلم مآله وعاقبته إلا الله ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ وارعوا حرمة المسجد الحرام، فلا تقاتلوهم فيه إلا إذا بدءوكم بالقتال فيه ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا ﴾ عن قتالكم وعن فتنتكم فى دينكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أما إذا استمروا فى قتالهم لكم وسعيهم لفتنتكم عن دينكم ﴿ قَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ قاتلوا الذين قاتلوكم

وسعوا بكل ما يستطيعون لفتنتكم عن دينكم، حتى تستأصلوا جذور الفتنة، ويكون الدين كله لله ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإن انتهوا عن قتالكم وفتنتكم، فلا تعتدوا عليهم، وإنما العدوان على من يظلمونكم بالقتال و الفتنة، فإذا اعتدوا عليكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم مثل ما قاتلوكم ـ والأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ـ ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ من هتك حرمة كحرمة الشهر الحرام أو حرمة الحرم يُقتَص منه بمثل ما فعل بكم ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ولا تزيدوا فى العقوبة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بأن لا تبالغوا فى الاعتداء، فالله مع المتقين بالتأييد والنصر ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أكثر أوامر القرآن تكرارًا الإنفاق فى سبيل الله، فى شتى صوره، ويكون فى أولها ـ حين اللزوم ـ فى الجهاد بالقتال لصد العدوان، ولدرء الفتنة ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ التهلكة هنا هى الإمساك عن الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأحسنوا فى كل أعمالكم، وأولها هنا الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ودرء الفتنة، بالنفس وبالمال، وقال (ﷺ): «من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا» متفق عليه.

بينت الآيات السابقة قواعد القتال فى الإسلام:

١- قاتلوا الذين يقاتلونكم، فلا تقاتلوا من لا يقاتلونكم، مثل النساء والشيوخ والأطفال، والرهبان والنساك، والمزارعين وأمثالهم، فإذا قاتلكم أحد منهم فقاتلوه، ولا تعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين.

٢- اقتلوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم حيث وجدتموهم، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا إذا قاتلوكم فيه، فحينئذ اقتلوهم فيه، فإن انتهوا عن قتالكم فانتهوا عن قتالهم، و﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، من حق المسلمين القصاص من المعتدين بقدر ما أصابهم عدوان المعتدين، وتحتمل الآية أنه يجوز لهم أن يغفروا للمعتدين إذا أنهوا عدوانهم بالقتال أو الفتنة، إذا رأوا أن ذلك يحقق مصلحة أكبر، وضمن المسلمون أن أولئك المعتدين لن يستأنفوا عدوانهم بالقتال أو بالفتنة، وإلا:

٣- قاتلوهم، أولئك الذين قاتلوكم وفتنوكم عن دينكم، حتى تنتهى فتنتهم لكم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ لا إجبار فيه ولا إكراه، ولا فتنة لأحد عن دينه الذى اختاره

طواعية، فإن انتهوا عن الفتنة ﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وكلمة ﴿عُدْوَانَ﴾ هنا تفيد المشاكلة والمماثلة والمساواة فى العقاب الذى ينزله المعتدى عليهم بالمعتدين.

٤- من قاتلكم فى الشهر الحرام، فقاتلوه فى الشهر الحرام، وماثلوا وساووا بين ما تفعلونه بالمعتدين وبين ما فعلوه بكم. واستخدمت الآية كلمة ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ لتفيد المشاكلة والمماثلة والمساواة، ثم جاء ختام آيات القتال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لتنهى المسلمين عن التجاوز والمبالغة فى رد العدوان.

ومع ذلك، ترتفع أصوات فى الغرب، ونسمع لها أصداء بيننا، أن الإسلام دين عنف وقتال، وتتصاعد تلك الأصوات لتتهم المسلمين بالإرهاب، ثم تذر الرماد فى العيون لتقول: ليس كل المسلمين إرهابيين! وتعلو أصوات أغلب حاخامات اليهود فى أمريكا وإسرائيل، تقول: ولكن كل الإرهابيين مسلمون(١).

* * *

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أى أدوهما تامين بمناسكهما المشروعة لوجه الله - تعالى - لا للتجارة أو الشهرة أو نحوهما، وقال الشافعية والحنابلة: العمرة واجبة كالحج، وقال الحنفية

(١) لنستعرض معًا البعض القليل مما جاء عن القتال فى الكتاب المقدس:

* سفر العدد: الإصحاح ٣١:

القضاء على المديانيين

وقال الرب لموسى: «انتقم من المديانيين لبنى إسرائيل، وبعدها تموت وتنضم إلى قومك». فقال موسى للشعب: «جهزوا منكم رجالاً مجندين لمحاربة المديانيين والانتقام للرب منهم. أرسلوا للحرب ألفًا واحداً من كل سبط من أسباط إسرائيل»... فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر؛ وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة: أوى وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلوا بلعام بن بعور بحد السيف. وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدنهم كلها بمساكنها وحصونها، واستولوا على كل الغنائم والأسلاب من الناس والحيوان، ورجعوا إلى موسى وألعازار الكاهن وجماعة إسرائيل بالسبى والأسلاب والغنيمة إلى المخيم فى سهول موآب بالقرب من نهر الأردن مقابل أريحا. =

والمالكية: إنها سنة ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ فإن منعكم مانع قهرى كالعدو أو المرض من إتمام المناسك ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ الهدى هو الذبيحة التى يهديها الحاج لفقراء البيت الحرام، وصار الآن مشروعًا أن يتم توزيعها أيضًا خارج البيت الحرام بعد أن بلغ عدد الحجاج ثلاثة أو أربعة ملايين، أو أكثر، وأقله شاة تذبح فى مكان المنع، أى حيث حبسه العذر الشرعى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محل ذبحه، وهو مكان الإحصار للمحصرين عند جمهور الأئمة، والحرم عند أبى حنيفة ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ من كان مريضًا أو عانى آلامًا فى رأسه أو هوامًا واضطر إلى حلق رأسه، فعليه أن يفدى عن ذلك بصيام ثلاثة أيام، أو التصدق على ستة مساكين بقوت يوم، أو يقدم ذبيحة للفقراء والمساكين، وأقلها شاة ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فإذا كنتم آمنين فى القيام بالمناسك، فمن اعتمر فى أشهر الحج، ثم أحل من إحرامه، فعليه ذبح شاة هديًا للفقراء والمساكين، ثم يحرم بالحج بعد ذلك ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ من لم يجد ثمن الشاة، فعليه صيام ثلاثة أيام بعد الإحرام بالحج، وفى قول أكثر سعة فى أشهر الحج، فليس الإحرام

= تطهير المحاربين وقتل النساء الأسيرات

فخرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم: «لماذا استحييتم النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بنى إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة للرب، فتفشى الوبأ فى جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً» (١-١٨).

* سفر التثنية: الإصحاح الثانى:

القضاء على ملك سيحون

وقال لى الرب: «انظر، ها قد ابتدأت أدفع أمامك سيحون لتستولى على أرضه، فأسرع فى تملكها حتى تتغلب عليها كلها». فخرج سيحون بكامل جيشه إلى ياهص لمحاربتنا. فأتانا النصر عليه من عند الرب إلهنا، فدحرناه وأبناءه وسائر جيشه. واستولينا على جميع مدنه، وقضينا فى كل مدينة على الرجال والنساء والأطفال، فلم ينج حى منهم - (٣١-٣٤).

القضاء على الملك عوج

ثم تحولنا واتجهنا نحو طريق باشان، فخرج عوج ملك باشان لمحاربتنا بكامل جيشه، فى إذراعى. فقال لى الرب: «لا تخف منه. قد نصرتك عليه مع سائر جيشه وأرضه، فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الذى كان مقيمًا فى حشبون». فحقق لنا إلهنا النصر أيضًا على عوج ملك باشان وعلى سائر جيشه، فهزمناه حتى لم ينج منهم حى، واستولينا على جميع مدنه وكل قراه. فكانت فى جملتها ستين مدينة منتشرة فى كل منطقة أرجوب التى تشكل مملكة عوج فى باشان. وكانت جميع هذه مدنًا محصنة بالأسوار العالية والأبواب والمزاليج، فضلاً عن قرى الصحراء الكثيرة. فدمرناها كما فعلنا بمدن سيحون ملك حشبون، وقضينا على الرجال والنساء والأطفال - (الإصحاح الثالث: ١-٦).

كل ما سبق يمثل عينة صغيرة من القتل باسم الله فى الكتاب المقدس.

بالحج شرطًا، بل يمكن الصيام بين الإحرامين، وأخذ بالقول الأول مالك والشافعي، وبالثاني أبو حنيفة، ثم إذا ما عاد إلى وطنه بعد الحج فعليه ﴿ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ صيام سبعة أيام ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ هذا في حالة من ليس من أهل مكة، فأهل مكة ليس عليهم شيء إذا تمتعوا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ واحرصوا على أداء المناسك كما أمركم بها الله، واتقوا الله واعلموا أنه شديد العقاب.

* * *

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ وهي شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذي الحجة، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وجوزه أبو حنيفة وأحمد مع الكراهة، وقد كان السفر للحج يأخذ أطول من شهرين في مطلع القرن العشرين، من بلاد في شرق آسيا مثل إندونيسيا وماليزيا ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ نوى الحج بالشروع في أعماله ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فلا يقارب النساء، ولا يتلفظ بالكلام الفاحش، ولا يخرج عن طاعة الله، ولا يجادل جدال الخصام والمراء والتفاخر والعنت ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ من طواف وسعي وصلاة ودعاء وإنفاق وعمل للتقرب لله، يعلمه الله ويثيبكم عليه ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ وتزودوا لآخرتكم بالتقوى التي تعني اجتناب الشرك والمعاصي، والتقرب لله بالإيمان والعمل الصالح، فهذا هو خير الزاد ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾.

* * *

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾

ظن البعض أن مزاولة التجارة في الحج حرام أو مكروه، فبين الله ـ تعالى ـ مشروعية ابتغاء الرزق الحلال في موسم الحج، ولكن ليس بمعنى أن تكون التجارة هي هدف الحج ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾ فإذا غادرتم عرفات بعد الغروب ووصلتم إلى مزدلفة ليلة النحر ـ واستخدمت الآية كلمة ﴿ أَفَضْتُم ﴾ والتي تعني كثرة المغادرين الذين يشبهون فيضان الماء، فسبحان من قال هذا والمسلمون بضع مئات، محصورون في المدينة بين أعداء يتربصون بهم في كل بلاد العرب، وخاصة مكة، يتحينون الفرصة وراء الفرصة لاستئصالهم ـ ﴿ فَاذْكُرُوا

اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ فاذكروا الله عند مزدلفة ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ واذكروه ذكر الحامدين الشاكرين الطيبين، بقدر ما هداكم، وقد كنتم من قبل لفى ضلال مبين.

* * *

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) ﴾

يقول أغلب المفسرين إن قريشًا كانت تقف بالمزدلفة ولا تقف على جبل عرفات كما يقف الناس ترفعًا وتكبرًا على أن يساووا أنفسهم ـ وهم سكان الحرم ـ ببقية المسلمين، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ أى من عرفة ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وليستغفر الحجيج ربهم الغفور الرحيم ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ كان من عادة الجاهلية التفاخر بالآباء والأنساب، فوجهنا الله إلى ما هو أفضل من ذلك، ذكره مثلما كانوا يذكرون آباءهم، بل وأكثر ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ من الناس من يطلب من الله الدنيا فقط، ولا يطلب الآخرة، فليس له فيها نصيب ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ﴾ ومنهم من يطلب إحسان الله إليه فى الدنيا والآخرة، أولئك هم الفائزون فى الدنيا والآخرة، وما أسرع حساب الله.

* * *

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وهى أيام منى، وهى التشريق، ثلاثة أيام بعد يوم النحر، ١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ يمكن للحاج أن يبقى يومين فقط ويرمى جمرات يومين، ويمكن أن يبقى ثلاثة أيام ويرمى جمرات ثلاثة أيام، ولا إثم عليه فى هذا أو ذاك، وقد تأخر الرسول (ﷺ)

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ والعبرة بتقوى الله الذى يحاسب الناس يوم الحشر.

* * *

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾

والناس أنواع: منافق يعطيك من طرف اللسان حلاوةً، والله يشهد على كذبه ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ هذا المنافق شديد العداوة للمؤمنين ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ إذا تولى منصبًا أو صار له نفوذ وتمكن؛ لم يسع فى الإصلاح بل يسع فى الإفساد وإهلاك الزرع والنسل، وهو مثل يضرب لمن يعم فساده حياة الناس ومواردهم ونسلهم، والله يحب الاستقامة وعمارة الأرض، وخلافته عليها بإقامة الحق، ولا يحب الفساد ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ وإذا تجرأ إنسان وراجعه فيما يفعل ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ تملكته الأنفة والكبرياء والحمية، واعتز بإثمه وجهله بدلاً من أن يتراجع عنه، فهو يرى نفسه فوق الناس وفوق القانون، وهو الذى يعلم ما لا يعلمون، حتى لو كان من الذين لا يعلمون ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ فيكفيه جهنم سكنًا ومستقرًا ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ وهناك نوع مقابل من الناس، يبذل نفسه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وإذا تولى أمرًا من أمور العباد، رأف بهم وأحسن الخلافة، والله أولى بالرأفة بعباده.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ قال جمهور المفسرين القدامى والمعاصرين: إن السلم هنا يعنى الاستسلام والطاعة لله، بمعنى الإسلام، وقال بعضهم: إن المخاطبين بها أهل الكتاب، وقال الآخرون: بل كل المؤمنين بمن فيهم المسلمون. وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى السلام، وليكونوا جميعًا مسالمين، وليحذروا خطوات الشيطان، ولا مانع من أن تجمع الآية كل تلك المعانى

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ واضح العداوة يؤجج العصبيات والنعرات لنشر النزاع والخلاف والحروب والدمار ﴿كَافَّةً﴾ تعنى كلكم، أو تعنى ممارسة كافة شرائع الإسلام، أو المعنيين معًا ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ فإن انحرفتم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من بعد الأدلة الواضحة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فتذكروا أن العزة لله جميعًا ولرسوله وللمؤمنين، وأن حكمة الله هى الجديرة بالاتباع، وليس مناهج المنحرفين ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ استفهام إنكارى: هل ينتظر هؤلاء المنحرفون عن منهاج الله كى يقتنعوا أن يتجلى الله عليهم وملائكته؟ سيكون ذلك يوم الحساب، بما فيه من أمور الغيب من شكل التجلى، أو المقصود بـ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أن يأتيهم أمره وأحكامه وملائكته، ويومئذ يقضى الله بين عباده، ولن يمهل أولئك المنحرفين.

* * *

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾

ليس فى هذا سؤال استعلام، ولكن توبيخ وإنذار بالعقاب الشديد لكل من تأتيه آيات الله البينات، فيعرض عنها، ويستبدل المناهج المنحرفة بالمنهاج الربانى، وتشير الآية إلى الآيات التى بينها القرآن من شق البحر لبنى إسرائيل، وتفجر عيون الماء من الحجر، ونزول طعامهم من المن والسلوى من السماء، وإحياء القتيل بعد ضربه ببعض من البقرة ليدلهم على قاتله، وما سبق ذلك من آيات الله لفرعون وبطانته، وبعد كل ذلك عبدوا العجل وعصوا رسولهم موسى (عليه السلام).

* * *

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾

شربت قلوب الكفار حب الدنيا وزينتها، ورأوا أنفسهم أفضل من المؤمنين المتقين، وسخروا من إيمانهم وأعمالهم، فى حين أن المتقين فى أعلى عليين يوم القيامة والكافرين فى أسفل سافلين، والله هو الرزاق، قد يرزق الكافر فى الدنيا استدراجًا، ويرزق المؤمن فى الدنيا ما لا يطغيه ولا ينسيه، ويكون رزقه فى الآخرة بغير حساب.

* * *

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مجتمعة على الحق والصلاح، ثم دب بينهم الخلاف ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أرسل الله أنبياءه ليبشروا المؤمنين وينذروا الكافرين ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ وأنزل مع الأنبياء كتابه، وحكمه الحق فيما اختلف فيه الناس ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ وما اختلف قوم فى كتاب نبيهم إلا بغيًا على أنفسهم وعلى بعضهم البعض، بطلب الدنيا والانحراف عن الكتاب، سواء برفض بعضه أو كله، أو بتأويله المنحرف، وتحتمل ﴿ الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ العلماء، وتحتمل العلماء وغيرهم، وعادة ما يتبع البسطاء والعوام ما يقوله لهم العلماء ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ﴾ فهدى الله المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله إلى الحق ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ بمشيئته وتيسيره إلى الصراط المستقيم.

* * *

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

هل ظننتم أن تدخلوا الجنة بمجرد أقوالكم بدون أن تعانوا ما عانت منه الأمم السابقة من مختلف أنواع الشدائد والابتلاءات، والإصابات والجروح حتى القتل، وزلزلهم تكالب الأعداء عليهم بالحصار والقتال والفتن حتى يقول كل رسول وأمته معه متى نصر الله؟ ويجيبهم ربهم مطمئنًا ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

* * *

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

يسألونك يا محمد عن أوجه الإنفاق، فقل لهم ابدءوا بالوالدين، ثم الأقارب واليتامى، والمساكين، وابن السبيل وهو المسافر أو الغريب، وأخبرهم أن كل ما يفعلون من خير، يعلمه الله ويجازى عليه، وجاء فى الحديث «ابدأ بمن تعول» رواه أبو داود.

* * *

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

فرض عليكم قتال من يعتدون عليكم، وأنتم تكرهون القتال ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فى دينكم ودنياكم ﴿ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ فى دينكم ودنياكم، والله يعلم، وهو العليم بالغيب الذى لا تعلمونه، والعليم بما هو خير لكم وما هو شر ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك].

* * *

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾

يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الأشهر الحرم، وهى ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ قل: قتال فى الشهر الحرام كبير. قال كثير من المفسرين: إن معناه أن القتال فيه إثم كبير، ويقول جمهور العلماء، إن لم يكن كلهم، بجواز القتال فيه لدفع عدو، أو لدفع ضرر أكبر ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وفيه منع عن سبيل الله، سواء كان ذلك بالقتال، أو غيره ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ وفيه كفر بالله ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وفيه صد عن المسجد الحرام ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ وإخراج المؤمنين من مكة أشد عند الله من القتال فى الشهر الحرام ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ وفتنة المؤمنين أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ وسيستمر الكفار والمشركون فى قتالكم ليعيدوكم كفاراً إن استطاعوا، وقال محمد عبده: [فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولم يستطيعوا] ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أولئك الذين يرتدون من الإسلام إلى الكفر، ويموتون على الكفر، خسروا أعمالهم، وسيخلدون فى جهنم وبئس المصير، ومن هذه الآية وآيات أخرى تتحدث عن المرتدين ولا تذكر عقوبة دنيوية لهم، قال بعض المحققين: إن الإسلام لم يشرع عقوبة لمن ارتد عن دينه، بشرط ألا يثير الفتن ويؤلب على المسلمين.

وقد نزلت الآيات بعد سرية عبد الله بن جحش، أو سرية نخلة، التى أمره بها الرسول (ﷺ) لرصد تحركات قريش فى رجب من السنة الثانية من الهجرة، ولم يأمره بقتال، ولا حتى

باستكراه أحد من الخارجين معه فى السرية على الاستمرار فى المهمة. وجاء فى سيرة ابن هشام:

[مضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمى. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم (برز لينظر إليهم) عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عُمّار، لا بأس عليكم منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام؛ فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر (وأسروا) عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان؛ وأفلت من القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله (ﷺ) المدينة.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله (ﷺ) المدينة؛ قال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين. وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا؛ فلما قال ذلك رسول الله (ﷺ) سقط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا.

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال؛ فقال من يرد عليهم من المسلمين، ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان.

وقالت يهود: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله - عمرو: عمرت الحرب - والحضرمى: حضرت الحرب - وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب - فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

... فلما أكثر الناس فى ذلك، أنزل الله على رسول الله (ﷺ): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله، أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه،

فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله ـ تعالى ـ عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق (الحزن والخوف)، قبض رسول الله (ﷺ) العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله (ﷺ): لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، يعنى سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله (ﷺ) منهم.

وأما الحكم بن كيسان، فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله (ﷺ) حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافراً].

وقد علق محمد الغزالى على هذه السرية فى كتابه «فقه السيرة» قائلاً:

[إن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام واضطهاد أهله، فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم؟]

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾

من يؤمن بالله، ويهاجر إليه؛ قديماً بالهجرة للمدينة، وبعد عصر الرسول (ﷺ) بهجرة معاصيه وبالتزام طاعاته، ويجاهد فى سبيل الله، فذلك يرجو رحمة الله، وله الفوز بغفران ربه ورحمته.

* * *

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾

يسألونك يا محمد عن رأى الإسلام فى الخمر والميسر ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ذنب كبير ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فالإثم والأضرار أكبر كثيراً من النفع الزائل، وتلك كانت الخطوة الأولى فى طريق تحريم الخمر والميسر ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ أى ما فاض عن الحاجة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ قل إن مقاربتهم لليتامى لإصلاح كل شئونهم خير من تركهم، سواء كان الترك درءاً لاستغلالهم أو درءاً للشبهات ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ وإن تخلطوا نفقتكم بنفقتهم بالعدل وتعاشروهم فإن ذلك من باب الأخوة الدينية ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ والله عليم بالنوايا والأفعال ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ ولو شاء الله لشق عليكم، سواء بفرض قيامكم عليهم والإنفاق من أموالكم، أو بفرض تركهم وشأنهم، أو غير ذلك من أوجه المشقة، ولكن الله ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ شرع لكم بحكمته ما فيه مصالحكم وعزكم فى الدنيا والآخرة.

* * *

﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾

الأمة التى تؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أولى باتخاذها زوجة من المشركة، وكذلك العبد المؤمن خير من المشرك، فلا تتزوجوا المشركين والمشركات ولو أعجبوكم، فهم يدعون إلى شركهم المؤدى للنار، والله يدعو الناس للإيمان والعمل الصالح الذى ثوابه الجنة، وقال بعض المفسرين: إن المراد أمة الله وعبد الله، وليس العبيد.

* * *

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾

كان اليهود إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها ولا يخالطونها ولا يلمسونها باعتبارها نجسة طوال فترة الحيض[1]، فسأل المسلمون ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فأجابهم الله إن الحيض أذى من الناحية الصحية ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ لا تجامعوهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ حتى تطهر المرأة تمامًا وتغتسل، فالإسلام لا يعتبر الحائض نجسة مثل اليهودية، فهو يسمح لها بالحياة الطبيعية إلا الصلاة والصوم، والتعامل الطبيعي مع زوجها ومع جميع المحيطين بها، إلا جماع زوجها ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فبعد الطهارة من الحيض، للزوج أن يجامع زوجته في موضع النسل الذي فطر الله الرجال على إتيانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فإذا فعل جاهل غير ذلك فليتب ولا يعد؛ فالله يحب عباده التوابين والمتطهرين ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وهنا النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، فنساؤكم حرث، أي محل زرعكم الأبناء ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يباح لكم أن تأتوهن بأية طريقة تشاءون مع الامتناع عن الدبر، والامتناع وقت الحيض ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قوموا بأعمال الخير، ومنها إحصان أنفسكم وأزواجكم، وإنجاب الذرية الصالحة، وتحتمل الآية معنى فمهدوا لأنفسكم عند أزواجكم قبل الجماع، بالملاطفة وما إلى ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ دائمًا يأمرنا الله بتقواه في العموم وفي النساء على الخصوص ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذكروا دائمًا أنكم ملاقو ربكم وسيحاسبكم، وبشر المؤمنين بلقاء رب كريم غفور رحيم.

* * *

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾

﴿عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ العرضة لها عدة معان، أظهرها أن تكون بمعنى القسم الذي قد يمنع عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، كما حدث مع أبي بكر (رضي الله عنه) عندما أقسم أن يتوقف عن الإنفاق على مسطح بعد أن خاض في قصة الإفك، ثم نزلت آية ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

(١) جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس: وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجسًا إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجسًا، وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسًا إلى المساء وكل من مس متاعًا تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسًا إلى المساء. وكل من يلمس شيئًا كان موجودًا على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجسًا إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجسًا سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجسًا ـ سفر اللاويين الإصحاح ١٥: ١٩-٢٤.

﴿الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النور: ٢٢] فرجع عن يمينه واستمر في الإنفاق عليه، وجاء في الحديث «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير» رواه مسلم. فكأن النهي هو عن القسم بالله الذي قد يظهر فيما بعد أن الأصلح هو العدول عنه، فالأولى عدم القسم من البداية. والمعنى الظاهر الثاني هو النهي عن كثرة القسم بالله بدون ضرورة؛ لأن أعمال البر والتقوى والإصلاح بين الناس تظهر وتتضح بدون الحاجة للقسم. وقال الشافعي: ما حلفت بالله صادقًا ولا كاذبًا. وقال كثير من الناس: لا يكون الحلاّف إلا كذابًا ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعفو عما ينطق به اللسان من غير قصد، مثل قول «لا والله ـ وبلى والله» دون قصد القَسَم ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي اجتماع اللفظ وانعقاد النية، والله ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

* * *

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ الإيلاء هو الحلف أو القسم، والمقصود هنا الحلف على عدم جماع الزوجة، والحلف على هذا الوجه لا يُرضي الله تعالى، لما فيه من ترك المودة والإضرار بالزواج، وكان ذلك من عادات الجاهلية حين يترك الزوج زوجته ولا يطلقها، فحدت الآية من ذلك ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ لا يجامع زوجته لمدة أربعة أشهر ﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن رجع عن يمينه وجامعها قبل انتهاء الأشهر الأربعة فعليه كفارة يمين، وهي كما حددها الله في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [٨٩].

وقال بعض المفسرين: لا كفارة عليه؛ لأن النص لم يبين ذلك، بل اكتفى بالقول فإن الله غفور رحيم، كذلك قال محمد عبده: [﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة؛ لأن الفيئة توبة في حقهم] يعني هذا أن من رجع عند انتهاء الشهور الأربعة إلى العشرة بالمعروف فإن الله غفور رحيم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإن انعقدت النيَة على الطلاق بعد أن لم يجامع زوجته خلال الشهور الأربعة فليطلقها، وجمهور العلماء أن للزوجة أن ترفع الأمر للقاضي إن انقضت المدة ولم يفيء، فيقال له أمسكت أو طلقت؟ فإن أمسك (بنية الفيء) فهي امرأته، وإن طلق فهي طالق.

* * *

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

وعلى المطلقات أن ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ القرء فى اللغة هو الحيض، وهو أيضًا الطهر، لذلك ذهب أبو حنيفة وأحمد إلى أن المقصود هو أن تنتظر المطلقة ثلاث حيضات قبل أن تتزوج، بينما ذهب مالك والشافعى إلى ثلاثة أطهار من الحيض، وقال محمد عبده: [والخطب (المشكلة) فى الخلاف سهل؛ لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار] ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ويحرم على المطلقة إذا كانت حاملاً أو حائضًا أن تكتم هذا ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ أى للزوج حق إرجاع الزوجة خلال فترة العدة، وهى ثلاثة قُروء، إذا كانت نية الزوج عودة الحياة الزوجية السليمة إلى ما كانت عليه بالمعروف ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ للزوجات حقوق على الأزواج، مثل ما عليهن من واجبات، بالمعروف الذى هو حسن المعاملة وإيثار الغير وكل الممارسات الطيبة الحميدة التى تستحسنها النفوس ويزكيها الشرع، وقال محمد عبده: [﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ هذه كلمة جليلة جدًا، جمعت على إيجازها ما لا يؤدى (يُشرح) بالتفصيل إلا فى سفر كبير، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمرًا واحدًا عبر عنه بقوله ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئًا، وعلى الرجل أشياء، ذلك أن هذه الدرجة هى درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ فالحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولابد لكل اجتماع من رئيس، وختم الآية بقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ ولذكر العزة والحكمة هنا وجهان: أحدهما: إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ماله عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم، والثانى: جعل الرجل رئيسًا عليها. فكأن من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعًا لله ـ تعالى ـ فى عزة سلطانه، ومنكرًا لحكمته فى أحكامه، فهى تتضمن الوعيد على المخالفة، كما عهدنا فى القرآن] ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ وهذه الدرجة فى كلّ من الصلاحيات والمسئوليات، تشمل تكليفًا مثل دفع المهر والإنفاق ومسئولية حماية المرأة والقيام على كل شئونها، وتشمل تعليمها وتفقيهها أمور دينها ودنياها، ويتطلب القيام بكل تلك

المسئوليات صلاحيات للزوج تضعه فى موضع القيادة، وقال ابن عباس: [تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء فى المال والخلق]. ولنا فى رسول الله (ﷺ) الأسوة الحسنة فى معاملة الزوجة، وقد قال: «خيركم خيركم لأهله» رواه الترمذى وابن ماجة. وقال آخرون: الدرجة هنا فى مسائل الزواج والطلاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يعز من عاداه، ولا يذل من والاه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى تشريعه.

* * *

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ يجوز للزوج رد زوجته بعد تطليقتين ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وبعد ذلك إما أن يردها ويحسن إليها، أو يطلقها دون أن يظلمها فى حقوقها، وهى التطليقة الثالثة البائنة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ لا يحل للرجل أن يجور على حقوق زوجته فى المال والمتاع، سواء أكان على سبيل الهدية أو المهر أو غير ذلك ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أى حقوق الزوجية من إحصان وعشرة بالمعروف والمودة والرحمة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإن خفتم ـ يا أولى الأمر ـ ألا يؤدى الزوجان حقوق الزوجية كما بيّنها الله، فللزوجة أن ترد له بعض أو كل ما أعطاها، وهذا الفراق المبنى على الافتداء يُسمى الخلع، الذى يحكم به الحاكم أو من يمثله. قال محمد عبده: [وقد جعل بعض المفسرين الخطاب الأول للأزواج والثانى للحكام، وجعل بعضهم الخطاب للحكام أولاً وآخراً لتناسق النظم بتناسق الضمائر. والذى أراه أن الخطاب فى مثل هذا للأمة؛ لأنها متكافلة فى المصالح العامة، وأولو الأمر هم المطالبون أولاً وبالذات بالقيام بالمصالح، والحكام منهم وسائر الناس رقباء عليهم.

وظاهر الآية أنه لافرق فى الخوف من عدم إقامة حدود الله بين أن يكون مثاره الرجل أو المرأة. وخصه بعض المفسرين بما إذا كان المانع من إقامتها من جانب المرأة، وهو الذى يتفق مع عدل الإسلام ويدل عليه السياق؛ إذ جعل هذا استثناء من تحريم أخذ الرجل المطلّق شيئًا ما مما كان أعطاه امرأته.

ويتجلى هذا بعرض حالات الزوجين الثلاث على العقل والعدل: فهما إن أقاما حدود الله ـ تعالى ـ بحسن المعاشرة وأداء كلّ منهما حق الآخر، إلا ما كان من شذوذ يتسامح فيه عادة،

فلا خوف ولا فراق. وإن عرض لهما ما يمنع إقامتها، فلابد أن يكون العارض المانع من قبل أحدهما أو كليهما. فإن كان من قبل الرجل بأن أبغض المرأة أو فتن بغيرها وأحب فراقها لغير ذنب منها أوجب ذلك، وخاف أن لا يعاملها بما يجب من المعروف، وأن تقابله بمثل ذلك، فله أن يسرحها بإحسان؛ لأن عقدة الزوجية بيده، وليس له أن يأخذ فى هذه الحالة مما كان أعطاها شيئًا بالنص، وهو: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ [النساء: ٢٠]، فإن التحريم فيها مبنى على ما إذا كان الرجل هو الذى أراد الطلاق. وإن كان المانع من قبلها، كأن أبغضته بغضًا لا تستطيع الصبر عليه والقيام معه بحقوق الزوجية، فخافت أن تقع فى النشوز، ويسرف هو فى العقوبة، فمن العدل أن تعطيه ما كانت أخذت منه باسم الزوجية ليحل عقدتها، فلا يخسر ماله وزوجته معًا، عملاً بالرخصة فى الآية إذا تعين حمله عليها. ونفى الجناح عنهما فى هذه الحالة ظاهر فى الرجل، وجعله بعضهم بمعنى المفرد لخفائه عليهم فى جانب المرأة، وما هو بخفى، فإن المرأة يذم منها شرعًا وعرفًا أن تطلب الطلاق، وقد رفع عنها الجناح فيه بهذا العذر، وهو علمها بتعذر إقامة حدود الله فى الزوجية.

وقد يقال إن هناك حالة ثالثة، وهى أن يكره كلّ منهما الآخر ويود فراقه. ونقول: إن المطلوب فى هذه الحال الصبر، لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩][1]. فإن صبر أحدهما دون الآخر جاء الوجهان السابقان. وإن اتفقا على الفراق خوفًا من الشقاق، ورضيت المرأة بأن تعطيه شيئًا، صدق عليها أنها هى الطالبة للفسخ، وجملة القول أنه لا يجوز للرجل أن يأخذ منها شيئًا إلا برضاها واختيارها من غير إيذاء منه ولا مضارة، ويدل على هذا ما ورد فى نزول الآية] ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ هذه هى أوامر الله وشرعه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ومن يتجاوز هذه الحدود فقد ظلم نفسه وظلم أهله ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾ فإن طلقها الثالثة، فلا تحل له إلا إذا تزوجت زوجًا آخر، ويدخل بها ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فإن طلقها الزوج

(١) اتخذ الإسلام موقفًا وسطًا بين اليهودية، وكلّ من الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية فى مسألة الطلاق. ففى اليهودية، يمكن للزوج أن يطلق زوجته لأبسط سبب، كأن تكون حرقت الطعام (انظر: الكتاب الأساسى فى اليهودية، الحاخام صموئيل هيلشتاين، إصدار فاكتس أون فايل ـ صفحة ١٥٥)، بينما حرمت الكاثوليكية والأرثوذكسية الطلاق إلا لعلة الزنا.

الثاني ورغبت في العودة إلى الزوج الأول ورغب هو في عودتها إلى عصمته ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إن اعتقدا أن يقوما بحقوق الزوجية وواجباتها ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذه هي حدود الله وأوامره ذكرها وبيّنها؛ ليستفيد منها من يعلمون أن الحق في اتباع المنهج الرباني .

* * *

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾

تستمر آيات القرآن في إبطال العادات الجاهلية التي كانت تظلم النساء، وتستمر أوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإحسان إلى النساء. وهنا تأمر الآية الزوج إذا طلق زوجته وقاربت العدة على الانتهاء أن عليه أحد أمرين، يمسك زوجته بالمعروف، أو يطلقها بالمعروف، والمعروف هو حسن المعاملة وإيثار الممارسات الطيبة الحميدة التي تستحسنها النفوس ويزكيها الشرع، وإذا كان لابد من الطلاق، فأيضًا يتم بالحسنى مع حفظ كل حقوق الزوجة. وتنهى الآية عن الإمساك بالزوجة للإضرار بها، فالزواج مودة ورحمة، ومن يضر زوجته فقد ظلمها وظلم نفسه، ولا تهزأوا بآيات الله، وخصوصًا في أحكام النساء، واذكروا نعمته عليكم إذ ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١]، واذكروا نعمته الأكبر والأشمل للمؤمنين بإرساله خاتم النبيين بالقرآن والحكمة لتتعظوا وتتقوا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وانتهت عدَّتهن فلا تمنعوهن ـ والخطاب هنا لأولى الأمر ـ إذا أردن استئناف الحياة مع أزواجهن الأول إذا تراضى الطرفان على حياة قوامها المودة والرحمة وحسن المعاشرة، تلك المواعظ السماوية يأخذ بها المؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك أفضل لكم وأطهر، والله أعلم بما يصلحكم عما تعلمون.

* * *

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

فالأصل أنه يجب على الأم إرضاع ولدها إن لم يكن هناك عذر مانع من مرض ونحوه ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وعلى الوالد الإنفاق على الوالدات لإرضاع أطفالهن، من إطعامهن إلى كسوتهن بالحسنى وبالطريقة اللائقة بحال المرأة فى قومها، ويبذل ما فى وسعه لمصلحة طفله ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ لا يضر الوالد الوالدة بأن يحرمها من الإرضاع، أو يجبرها عليه وهو قادر على دفع أجر المرضعة، ولا يمنعها شيئًا مما أمر به الله، وهى لا تكلفه فوق طاقته أو تحرمه حقه فى ولده، وما إلى ذلك من أمور الشقاق ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ اختلف المفسرون فى المراد من لفظ ﴿ الْوَارِثِ ﴾ على أقوال، قال بعضهم: المراد بالوارث هو وارث الأب المتوفى - وقال بعضهم: المراد بالوارث الباقى من الوالدين بعد وفاة الآخر - وقال آخرون: المراد بالوارث الصبى نفسه إذا مات والده، فتجب النفقة عليه من ماله إن كان له مال ﴿ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ معناها: أن على الوارث مثلما على المولود له، وأنه لا يضار مثلما لا يضار المولود له ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ فإن أراد الوالد والوالدة فطام الطفل قبل انتهاء الحولين، بشرط ألا يضر ذلك بالطفل، فلا مانع ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ لا مانع أن تعهدوا لمرضعة بإرضاع أطفالكم إذا اتفقتم بالمعروف، أى بالحسنى، مع الوالدات، ومع المرضعات، واتقوا الله البصير بأعمالكم ونواياكم.

* * *

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

الزوجات اللاتى يتوفى أزواجهن، عليهن الانتظار مدة أربعة أشهر هلالية وعشرة أيام استبراءً للرحم، مع عدم التعرض للخُطاب، حتى تضمن أن رحمها خال من الولد، أما إذا

كانت الأرملة حاملاً فعدتها تمتد إلى أن تضع حملها كما جاء في سورة الطلاق ﴿ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ فإذا انتهت تلك العدة ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فلا لوم على أولياء النساء، ولا على النساء أنفسهن، وأفادت ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ عند بعض المفسرين، الجماعة أو الأمة المسلمة، ويمثلها علماؤها وحكامها، إذا ما بدأن التزين للحياة الطبيعية، واستقبال الخطاب، وما إلى ذلك ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالحسنى ومكارم الأخلاق التي تتفق مع شرع الله بهدف الزواج.

قال بعض المفسرين والفقهاء، منهم مالك ومحمد عبده والمراغي والزحيلي وغيرهم إنها لا تخرج من منزلها طوال فترة التربص، أربعة أشهر وعشرًا، إلا لعذر شرعي، وليس في الآية ما ينص على ذلك، ولكن هناك مفسرون وفقهاء آخرون لم يروا ذلك، منهم عائشة وابن عباس . . وغيرهما.

وقد كانت الأرملة في الجاهلية تلبس شر ثيابها، وتدخل حفشًا (أسوأ بقعة في بيتها) ولا تمس طيبًا حتى تمر سنة على وفاة زوجها.

* * *

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

لا إثم على الرجال إذا لمَّحُوا إلى الأرامل عن رغبتهم بالاقتران بهن دون التصريح بما يخدش حياء الأرملة وتقديرًا لحزنها على زوجها ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ إن الله خبير بما جبل عليه الرجال من ضعف الصبر على الإفصاح بالرغبة في الزواج، فرخص لهم التعريض ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال محمد عبده في ذلك: [جملة القول أنه لا يجوز للرجال أن يتحدثوا مع النساء المعتدات عدة الوفاة في أمر الزواج بالسر ويتواعدوا معهن عليه، وكل ما رخص لهم فيه هو التعريض الذي لا ينكر الناس مثله في حضرتهن، ولا يعدونه خروجًا عن الأدب معهن، والفائدة منه التمهيد وتنبيه الذهن، حتى إذا تمت العدة، كانت المرأة عالمة بالراغب أو الراغبين، فإذا سبق إلى خطبتها المفضول، ردته إلى أن يجيء الأفضل عندها] ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا

عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ ولا تقرروا أمر الزواج قبل أن تنتهى العدة؛ فالله مطلع عليكم فاتقوه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

* * *

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾

لا جناح عليكم أن تطلقوا النساء قبل الدخول الشرعى أو قبل تحديد قيمة المهر، وفى هذه الحالة ليس على الرجال مهر ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن من المال تعويضًا عن الطلاق، وليدفع الغنى ما يناسب غناه، والفقير ما يناسب دخله المحدود طبقًا للعرف الذى لا يخالف الشرع، وبالحسنى الواجبة على المتقين ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فادفعوا لهن نصف المهر الذى فرضتموه لهن، أى المسمى بينكم ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ إلا إذا تنازلت عنه الزوجة برضاها ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هناك قولان عمن بيده عقدة النكاح: الأول هو الزوج الذى طلق، والثانى هو أولياء الزوجة المطلقة، قال بكلٍّ منهما عديد من الصحابة وعلماء السلفاء والخلف، ومعنى الأول أن يؤدى المطلق المهر كله لمطلقته لا ينقص منه شيئًا، ومعنى الثانى أن أولياء المطلقة لا يأخذون لها النصف الذى قررته الآية. ويؤيد الوجه الأول من قال بأن إسقاط الولى نصف المهر ليس بمستحب، وبقية الآية تقضى على هذا الخلاف بأن تجعل كلاً من الطرفين يتسابق إلى العفو والفضل ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ التوجيه هنا للطرفين دافعًا كل طرف لإيثار الآخر ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ولا تنسوا فضائل الأعمال، وأن يتفضل كل طرف بقدر ما يستطيع على الآخر، والله بصير بأعمالكم ونواياكم.

* * *

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)﴾

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ داوموا على إقامة الصلاة فى أوقاتها وأحسنوا أداءها، واعملوا بما أراده الله لكم بها ومنها ﴿.. إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ..﴾

[العنكبوت: ٤٥] ﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ هناك ثمانية عشر قولاً فيها أوردها الشوكانى فى «نيل الأوطار»، أصحها، فى قول محمد عبده، ما ذهب إليه الجمهور من كونها صلاة العصر ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قوموا فى صلاتكم خاشعين لا تتحدثوا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ فإن خفتم من مباغتة العدو أو التعرض لهجوم اللصوص أو الوحوش، فصلوا مشاة أو راكبين ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من سبب الخوف ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ صلوا واذكروا الله كما علمكم الصلاة، وكما علمكم أعمال ذكر الله. وقال الزمخشرى: [اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع، وكيف تصلون فى حال الخوف والأمن]، والعبادة هى إتيان الأوامر واجتناب النواهى والعمل بكل ما يقرب لله، والامتناع عن كل ما يبعد المرء عن سبيل الله.

* * *

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)﴾

على الزوج أن يوصى ببقاء زوجته فى منزله مع الإنفاق عليها من ماله، ولا يخرجها أحد لمدة سنة، ولكن من حقها الخروج إذا أرادت، وبالطبع إذا تزوجت.

وتعددت الأقوال فى الآية، فالجمهور قال إنها نُسخت بجعل العدة أربعة أشهر وعشراً وبنصيبها من الميراث، وقال محمد عبده: [ذهب بعض الصحابة والتابعين إلى أن الأمر بالوصية للندب، وتهاون الناس به كما تهاونوا فى الكثير من المندوبات.. وعلى هذا فلا نسخ؛ لأنهم مجمعون على أنه لا يصار إلى النسخ إذا أمكن الجمع بين النصين].

* * *

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)﴾

و يأمر الله المتقين بتعويض المرأة المطلقة، بالحسنى وطبقًا للعرف، بالمال، الذى يشمل الواجب كالصداق، والتطوع فى قول بعض المفسرين، وقال البعض: المقصود بالمتاع النفقة، وقال الرازى: [إن الآية ٢٣٧ تتحدث عن حكم خاص، وتتحدث الآية الحالية عن حكم عام]. ويلفت النظر ذكر آيتى الصلاة وصلاة الخوف، بسبب قتال أو غيره، بين آيات النساء،

مما يبين أهمية تضافر وتجانس الطاعة فى أركان العبادة المتنوعة مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج، مع الطاعة فى بقية العبادات، أو ما يسميه البعض المعاملات، وأحوال الأسرة، كأن الشرع يغزل وينسج حياة متكاملة للمؤمنين، تؤتى العبادات ثمارها فى معاملاتهم وكل أوجه حياتهم، بلا انفصال ولا انفصام ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ بهذا الشكل، يبين الله لكم مكنون أحكامه وتشريعاته حتى تعقلوها وتعملوا بها.

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾

استفهام للاعتبار، والرؤية هنا رؤية المعرفة، وليست رؤية البصر. ألم تعرف يا محمد عبرة القوم الذين خرجوا من بيوتهم خوفًا من الموت، ولم تصرح الآيات إن كان ذلك خوفًا من وباء أو مجاعة أو عدو، فأماتهم الله ثم أحياهم، وفى هذا تلميح قد يُفهم منه عدم جدوى خروجهم، أو أن ذلك الخروج استحق آية ربانية تميتهم ثم تحييهم، من فضل الله عليهم، وهو ذو الفضل على العالمين، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)﴾ دعوة إلى الجهاد فى سبيل الله، واستدل بها بعض المفسرين أن الخروج كان فراراً من الجهاد ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ تحث الآية على العمل فى سبيل الله، بإنفاق المال وببذل النفس، وتُصَوِّر من يفعل ذلك كأنه يقرض الله ويسترد قرضه أضعافًا مضاعفة، ثم تذكرنا الآية بأن الله هو من يزيد فى الأرزاق وفى الآجال، ومن ينقصها، فالأمر كله بيده[1].

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) ومثل هذه الآية توضح معنى قول الله ﴿نَعْلَمَ﴾، فالمقصود بها ليعلم المؤمنون وغيرهم، مثلما المقصود هنا الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين، وليس على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)﴾

علق محمد عبده على تفاسير الآية قائلاً: [رووا روايات من الإسرائيليات التى ولع بها المفسرون وكلفوا بتطبيق كتاب الله ـ تعالى ـ عليها. أطلق القرآن القول فى هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم، ولم يعين عددهم ولا أمتهم ولا بلدهم، ولو علم لنا خيراً فى التعيين والتفصيل لتفضل علينا بذلك فى كتابه المبين. فنأخذ القرآن على ما هو عليه، لا ندخل فيه شيئًا من الروايات الإسرائيلية التى ذكروها، وهى صارفة عن العبرة، لا مزيد كمال فيها].

ألم تعرف يا محمد عبرة جماعة بنى إسرائيل من بعد موسى (ﷺ)؛ إذ طالبوا نبيهم فى ذلك الوقت أن يجعل لهم ملكًا يقودهم فى حربهم فى سبيل الله، فقال نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ وهل ستوفون بعهدكم إن أقام الله لكم ملكًا؟ أم أنكم ستنقضون العهد وتفرون من القتال؟ ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ كيف لا نقاتل وقد أخرجنا أعداؤنا من ديارنا ومن وسط عائلاتنا وأبنائنا؟ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فلما حان وقت القتال، تولوا وأعرضوا وجبنوا عن القتال إلا القليل منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

* * *

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾

عندما استجاب لهم نبيهم، وأخبرهم أن الله بعث لهم طالوت ملكًا، اعترضوا عليه، وقالوا نحن أحق بالملك منه، وقد يعنى قول من قال ذلك أن سبطه أو عشيرته أحق بالملك، أو أنهم الأكثر ثراءً، فأجابهم نبيهم إن الله اصطفى طالوت، وزاده فى العلم وفى الجسم عليهم، والله يؤتى ملكه من يشاء، وهو عليم واسع الحكمة والرزق.

وقد روى الكتاب المقدس القصة مع اختلافات، فى سفر صموئيل الأول، وسمى طالوت شاول، وسمى النبى صموئيل.

* * *

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

أخبرهم نبيهم أن الدليل والعلامة على اختيار الله له أن يأتيكم الصندوق[1] يجلب عليهم سكينة من ربهم، وفيه بقية مما تركه موسى (عليه السلام) وآل هارون (عليهم السلام) تحمله الملائكة وتأتى به إليهم، وتكفيكم هذه الآية إن كنتم مؤمنين.

* * *

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

فلما تحرك طالوت بالجنود قال لهم: إن الله سيختبركم ويمتحنكم بنهر ستمرون عليه، فإياكم والشرب منه، وإلا ستخرجون من ولايتى ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ ومن يصبر ولا يشرب من النهر فهو منى ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ ثم استثنى من يأخذ بيده غرفة واحدة من الماء ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ فأفرطوا فى الشرب إلا قلة قليلة منهم ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ هكذا قال الذين أفرطوا فى الشرب وعصوا طالوت ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ ﴾ بينما قال علماؤهم وأتقياؤهم من القلة التى التزمت وظنت أنها ستلقى الله فى الآخرة ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا

(١) يذكر كثير من التفاسير عن التابوت، أى الصندوق، شروحًا من الإسرائيليات، لا يمكن الوثوق فى صحتها، والمسلك فى الإسرائيليات ألا نكذبها ولا نصدقها، إلا ما وافق نصًا قرآنيًا أو حديثًا صحيحًا، وقد وصف العهد القديم صناعة التابوت وأثاث المقدس وأردية الكهنة فى أكثر من عشر صفحات، كذلك وصف بناء المذبح وخيمة العهد وثياب الكهنة فى أكثر من عشر صفحات.

يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

ولما برزت الفئة القليلة واصطفت لمحاربة جالوت وجنوده دعوا قائلين ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ ربنا صب علينا الصبر صبًا ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ امنحنا الثبات فى المعركة ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأن النصر من عند الله إذا أخلص العبد واستقام وأعد العُدة ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ وكان نبى الله داود (ﷺ) فى جيش طالوت، فقتل جالوت ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أعطى الله داود (ﷺ) ملك بنى إسرائيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قال الألوسى: [الحكمة هى وضع الأمور مواضعها على الصواب والصلاح، وكمال هذا المعنى إنما يحصل بالنبوة، فلا يبعد أن يكون المراد بالحكمة هنا النبوة] وعند الشافعى، هى السنة فى سياق النصوص الشرعية ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من أمور الدين والدنيا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ولولا أن الله يدفع بفضله أهل الحق ضد أهل الباطل لساد الفساد وامحق الحق والعدل من الأرض ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إننا نقص عليك بالحق هذه القصص التى فيها آيات لك وللمؤمنين.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث

بقية سورة البقرة

من الآية ٢٥٣ حتى نهايتها الآية ٢٨٦

وسورة آل عمران

من بدايتها حتى الآية ٩٢

obeikandl.com

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

فضَّل الله بعض رسله على بعض، ولكن ليس لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نخوض فى هذا، فلسنا فى مقام أىٍّ منهم ولا حتى قريبين من ذلك المقام، وأمرنا الله فى الآية ٢٨٥ من سورة البقرة ألا نفرق بين أحد من رسله، وبالتالى أمرتنا السنة النبوية بذلك، فجاء الحديث «لا تفضلوا بينى وبين الأنبياء» متفق عليه. ومن رسل الله من كلمه الله مثل موسى (ﷺ)، وأتى الله رسوله عيسى (ﷺ) الآيات البينات؛ إذ أتى بدون أب، وتكلم فى المهد صبيًا، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى، وجعل من الطين أشكالاً مثل الطير ونفخ الله فيها من روحه فصارت طيرًا، وأيده الله ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ قيل الوحى، وقيل روح الوحى، وقيل جبريل، وقيل كلهم واحد، ولو أراد الله لآمن الخلق كلهم، وما اقتتلوا فيما بينهم، ولكن الله كلف العباد ومنحهم حرية الإرادة وحرية العمل، فى حدود يحاسبهم داخل نطاقها، وهذه مشيئته لحكمة قد نعلم بعضها، وقد نجهل البعض الآخر ـ وقد قال تعالى فى [سورة يونس]: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ ـ وليس هناك من يجوز له، أو يُمكنه أن يملى على الله، سبحانه، ما يريد، بل الله ﴿ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾

﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أمر من الله بالإنفاق الواجب كالزكاة، والمندوب كصدقات التطوع ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ الحساب، فحينئذ ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ أى لا فداء بالمال ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ ولا صداقة تنفع ﴿ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ لا أحد يملك الشفاعة لأحد إلا لمن أذن الله له ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

* * *

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ الله هو المتفرد بالألوهية ﴿ الْحَيُّ ﴾ فهو خالق الحياة والموت ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ قيوم السماوات والأرض، القائم على كل أمورها ومدبرها ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ لا يأخذه نعاس ولا فتور، ولا يتعب فينام للراحة. وربما جاءت هذه الآية ـ من ضمن ما جاءت له ـ لتصحيح ما قد يظنه أهل الكتاب ومن أخذ عنهم أن الله استراح في اليوم السابع من خلق الدنيا ولنفي كل تشبيه له بالبشر ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ خلق كل ما فيها وقام على كل أمورها من بدايتها ليوم الحساب وما بعده ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ لا يشفع أحد إلا بإذنه وحسب شرعه، وقد منَّ الله على خاتم النبيين (ﷺ) بالشفاعة العظمى، وهذا هو المقام المحمود الذي جاء في سورة الإسراء ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [٧٩] ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يحيط علمه بكل أمور الخلق في الدنيا وجميع أحوالهم في الدنيا: الماضية والحاضر والمستقبلة، وفي الآخرة، ـ مصداقًا لقوله تعالى ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] ـ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ الكرسي مجاز عن العلم، أو الملك، أو كليهما، وقال مخلوف: [من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنفوض علم حقيقته إليه تعالى، مع كمال تنزيهه عن الجسمية، وعن مشابهته المحدثات] ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ولا يصعب عليه حفظ السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾.

* * *

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ لا إجبار في الدين، فالإيمان بالدين لا يكون إلا بالاقتناع والاختيار، والإجبار على الدين، أي دين أو أي معتقد فكري، يأتي بالنفاق والمنافقين، وأخبرنا الله أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وقال محمد عبده: [قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه] ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ تبين طريق الرشاد من طريق الضلال ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ فمن يرفض الطاغوت ـ وهو اسم جامع لكل ما يُطغى الإنسان من كفر وشرور وفساد وضلال، وكل ما عُبد من دون الله ـ سواء كان بشرًا أو صنمًا أو معتقدًا ـ ويعبد الله وحده، فقد استمسك بأوثق وثاق لا تنفصم عراه أبدًا، يهديه الله فى الدنيا، ويجعله من الفائزين فى الآخرة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

* * *

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾

يتولى الله الذين آمنوا، فيخرجهم من ظلمات الطاغوت إلى نور الحق، ويتولى الطاغوت الذين كفروا، فيخرجهم من نور الحق إلى الظلمات، فيستحقون الخلود فى النار. قال محمد عبده: [معنى الآية الذى يلتئم مع معنى سابقتها ظاهر أتم الظهور، وهو أن المؤمن لا ولى ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى، ومتى كان كذلك فإنه يهتدى إلى استعمال (وسائل) الهدايات التى وهبها الله له على وجهها، وهى الحواس والعقل والدين. فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة، لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلمتها، فيخرجون منها بسهولة].

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾

ألم تعرف يا محمد قصة الذى طغى لما آتاه الله الملك وحاجج إبراهيم (ﷺ) فى ربه، فقال أنا مثل ربك أحيى وأميت، ويقصد بذلك أنه يستطيع قتل من يريد أو تركه حيًا، فأجابه إبراهيم (ﷺ): إن الله يجعل الشمس تأتى من المشرق، فاجعلها تأتى من المغرب بدلاً من المشرق، فانقطعت حجة الكافر، والله لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم الآخرين.

* * *

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

من هو الذى مر على القرية، وأى قرية هى؟ لم يبين القرآن ذلك، ولم يبينه حديث صحيح، والمهم فى الآيات العبرة وليست الأسماء. والعبرة هى فيمن تساءل عن كيفية إحياء الله القرية التى انهارت بيوتها وخلت من سكانها، فأماته الله مائة عام ثم أحياه، وسأله: كم لبثت؟ فأجاب يومًا أو جزءًا من يوم، فقال الله له بل لبثت مائة عام، وانظر لقدرة الله فى إبقاء طعامك وشرابك سليمًا لم يتغير ولم يفسد بفعل مرور السنين، وفى نفس الوقت أتت على لحم حمارك وفككت عظامه، ثم انظر بعد ذلك كيف نرفع العظام ونركبها على بعضها البعض، ثم نكسو عظام الحمار لحمًا، ونحييه مرة أخرى، فعلم صاحب العبرة قدرة الله.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

قال إبراهيم (ﷺ): ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ فأجابه الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ ألم تؤمن بعد؟ ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ قال إبراهيم (ﷺ) بل آمنت، ولكنى أطلب اطمئنان قلبى، فقال تعالى ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ اجمع إليك أربعة من الطير، وقربهن إليك، ثم فرقهن على جبال أربعة ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ثم ناديهن، تأتينك مسرعات. وليس فى نص الآية ذبح للطيور وتفريق أشلائها على الجبال. قال محمد عبده: ومعناه: [خذ أربعة من الطير فضمها إليك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإن الطيور من أشد الحيوان استعدادًا لذلك. ثم اجعل كل واحد منها على جبل. ثم ادعها، فإنها تسرع إليك لا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين: «كونوا أحياء» فيكونوا أحياء، كما كان شأنه فى بدء الخلق؛ إذ قال للسماوات والأرض ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]].

* * *

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ .

تصور هذه الآية ثواب المنفقين أموالهم فى سبيل الله وكيف يتضاعف مثلما تتضاعف حبة أنبتت سبع سنابل فى كلٍّ منها مائة حبة ؛ أى يضاعف الله الحسنة إلى سبعمائة ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ إلى أضعاف مضاعفة ؛ فالله واسع الكرم عليم بالمحسنين .

* * *

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) ﴾

الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويرجو القبول والرحمة والمغفرة والثواب ، ولا يُتْبِعُ نفقته منّا على الفقير أو إيذاءً لمشاعره ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الدنيا والآخرة .

* * *

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) ﴾

فإن لم تجد ما تعطيه للفقير ، فمن الخير لك وله أن ترده بكلمة طيبة ، والله غنى عن الصدقة المشفوعة بالمن والأذى ، وعن منعكم المحتاجين مال الله الذى استخلفكم عليه ، والله يمهلكم ولا يعجل مؤاخذتكم .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾

يا أيها المؤمنون ، لا تخسروا ثمار الصدقة بالمن والمعايرة وإيذاء المشاعر ، ولا تكونوا مثل من ينفق ماله ليرائى الناس ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فإنفاقه ليس فى سبيل الله ولا طلبًا لرضاه ، وإنما هدفه مدح الناس فى الدنيا ، فمثله فى الإنفاق مثل وابل المطر الذى يسقط على

حجر أملس عليه تراب، فلا يؤثر فيه وإنما يتركه أملس، لا ينبت منه زرع ولا ثمر ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء رضا ربهم، وتثبيت إيمانهم وتصديقه بالإنفاق، فإنفاقهم يماثل سقوط وابل المطر على حديقة على ربوة، فأخرج ثمراً مضاعفًا ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ فإن لم يسقط عليها المطر الغزير، نزل عليها المطر الخفيف، وحتى لو كان إنفاقهم قليلاً على قدر وسعهم ويماثل قلة الطل بالنسبة لوابل المطر، فسيكفي ذلك الطل لإثمار الحديقة، والله بصير بأعمالكم.

* * *

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غنية بالنخل والأعناب، كثيرة الأنهار، وفيها من كل الثمرات، ولكنه لا ينفق منها إلا بالمن والأذى والرياء، فإذا بالسنين تجرى والضعف والشيخوخة تدب في الأوصال، وفجأة يهب إعصار، فإذا بالحديقة تحترق، وإذا بصاحب الحديقة عاجز، كذلك ذريته ضعيفة عاجزة، وهي أعماله في شبابه، وهذه العبر يبينها الله للناس حتى يتفكروا.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾

وهذا أمر آخر في آداب التصدق، وهو أن نتصدق من الطيب الذي كسبناه من أعمالنا، ومما أخرجه الله لنا من خيرات الأرض؛ لأننا إنما نضع الصدقة في يد الله أولاً قبل أن نضعها في يد الفقير، والله يأمرنا: لا تختاروا الصنف الرديء، أو الذي تعافه النفس لتتصدقوا به،

وإذا قدم إليكم فإنكم لن تأخذوا منه إلا إذا تغاضيتم وتساهلتم وأخذتموه على مضض واستحياء، واعلموا أن الله غنى عن مثل هذه الصدقة، وهو المستحق الحمد على نعمه.

* * *

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾

الشيطان يخوفكم من الفقر لتبخلوا ولا تنفقوا فى سبيل الله، بل يزين لكم أكل المال الحرام ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ قال مخلوف: [يغريكم بالبخل، والفاحش عند العرب هو البخيل، وقيل كل فحشاء فى القرآن مقصود بها الزنا إلا فى هذه الآية] ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ إذا أنتم أنفقتم وسعيتم فى سبيل الله ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ المغفرة والفضل والعطاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تفعلون ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ﴾ الحكمة هى الإصابة فى تقدير الأمور، والإصابة فى القول والعمل ـ وقال الشافعى: هى السنة عندما تُذكر مع الكتاب ـ فمن أتاها فقد أتاه الله خيراً كثيراً فى الدنيا والآخرة، فتذكروا يا أصحاب العقول.

* * *

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) ﴾

كل عطاء قلَّ أم كثر، وكل نذر لله سواء أكان مالاً أو طعاماً أو صلاة أو صياماً، أو غير ذلك من طيب الأعمال يعلمه الله ويجزى به ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أما الذين يبخلون ولا يوفون بما نذروا، فقد ظلموا أنفسهم، ولا أنصار لهم يوم القيامة.

* * *

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

إن تظهروا الصدقة ـ بدون نية الرياء أو المن ـ فنعم الفعل ونعم الصدقة؛ لأن فى إعلانها تشجيعاً للآخرين وإعطاء القدوة، وإن تسروا الصدقة فهذا خير أيضاً؛ لأنها بعيدة عن الرياء، ولا تؤذى المستفيد، وصدقة السر والعلن تكفر السيئات ـ ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] وفى الحديث: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق

بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» رواه البخارى ومسلم، وفى الحديث أيضًا: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» رواه الترمذى ـ والله خبير بما نعمل.

* * *

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) ﴾

تحرج بعض المسلمين من التصدق على أقربائهم من المشركين وأصهارهم من اليهود، فنزلت الآية، وهى توضح أنه ليس على محمد (ﷺ) هداية الناس، ولكن عليه إبلاغ رسالته، ونزلت بجواز صدقة التطوع على غير المسلمين، بل إن سورة الإنسان أثنت على من تصدق على الكافر المحارب ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [٨].

* * *

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾

هذه الآية نزلت فى أصحاب الصُّفة، وهم الفقراء من مهاجرى قريش الذين كانوا يبيتون فى المسجد النبوى يتعلمون دينهم ويعبدون الله، وكانوا يخرجون للجهاد والغزو مع كل سرية، وفى أمثالهم فى كل مكان وزمان، واختلفت التأويلات فى قوله تعالى ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ من قائل بأن عدم الاستطاعة هى عدم الفرصة للكسب، إلى أنهم أصابتهم جروح فى القتال فى سبيل الله منعتهم عن السعى وراء أرزاقهم، أى أنهم مصابو الحرب كما نقول اليوم، ويبدو أن القول الأخير هو أرجح الأقوال، فأوامر الشريعة واضحة ومتكررة بوجوب السعى وراء الرزق الحلال، ولا إحصار لمن يقدر على السعى، وهؤلاء الفقراء ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ لا يلحّون فى سؤال الصدقة، فقد منعتهم عن ذلك عزة أنفسهم، وتكرر الآية أن الله عليم بكل خير تنفقونه أو تعملونه.

* * *

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

هذه بشارة للمنفقين فى سبيل الله، فسواء كان الإنفاق بالليل أو بالنهار، فى السر أو العلن، فالأجر عند الله، ولا خوف عليهم من نقص الثواب أو نفاد المال؛ فلله خزائن السماوات والأرض، ولا هم يحزنون فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولم يكرر القرآن أوامر فى الشرع كما كرر الأمر بالإنفاق فى سبيل الله.

* * *

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) ﴾

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ الذين يأخذون الربا على أموالهم ﴿ لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال جمهور المفسرين: إن ذلك وصف آكل الربا يوم القيامة، وقال ابن عطية: [ألفاظ الآية تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الدنيا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع فى مشيه يخلط (يضطرب) فى هيئة حركاته إما من فزع أو غيره: قد جُن هذا! وقد شبه الأعشى ناقته فى نشاطها بالجنون]، وقال قليل من المفسرين بما يشبه قوله، منهم المراغى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ فرد الله عليهم بأن البيع حلال والربا حرام ﴿ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾ من اعتبر بمنع الله ونهيه، وقرر التوقف عن الربا فله ما أخذه من الربا فى الماضى قبل تحريمه وأمره موكول إلى عفو الله، أما من بلغته هذه الآيات وصم أذنيه واستمر فى التعامل بالربا، فأولئك أصحاب النار خالدون فيها ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) ﴾ بقدر ما ينمى الله الصدقات ويزيدها، فإنه ينُقص الربا؛ والله لا يحب من يكفر بآياته البينات ويصر على الإثم.

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾

إن الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الطيبات وأقاموا الصلاة فى مواقيتها، وأتموها، وعملوا بما أمرتهم به ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وآتوا الزكاة، فثوابهم مضمون عند ربهم، ولن يصيبهم الخوف ولا الحزن فى الآخرة، وفى الدنيا لا يصيبهم إلا أذاها الزائل. وهكذا يربط القرآن دائمًا بين الإيمان وعمل الصالحات، وبين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وسَمَى الشرع الزكاة بالصدقة؛ لأنها تُصدِّق على الإيمان.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾

بعد أن بين القرآن حرمة الربا، جاءت هذه الآية محذرة ومنذرة بحرب من الله ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ خافوا الله واخشوا عذابه، واتركوا ما لكم عند الناس من الربا إن كنتم مؤمنين بالله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإن لم تتركوا الربا، فقد أعلنتم على أنفسكم حربًا من الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ فإن أردتم توبة نصوحًا، فمن حقكم فقط رءوس أموالكم لا تطلبون زيادة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بترك بعض من رءوس أموالكم، وإن كان المدين فى ضائقة مالية فأمهلوه حتى ييسر الله له، وإن استطعتم أن تتصدقوا على المدين بدينه فهو خير لكم من استرداد مالكم من ذلك المعسر إن كنتم تعلمون الحقيقة. واتقوا الله بأعمالكم الصالحة، ومن أهمها الإنفاق فى سبيل الله، يوم يبعثكم الله ليوم الحساب، وهناك روايات أن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ هى آخر، أو من أواخر آيات القرآن نزولاً.

فى ختام آيات تحريم الربا، نشير إلى الخلاف الواسع اليوم بين المسلمين فى تحديد الربا المحرم، وننصح بالرجوع إلى كتب الفقهاء القدامى والمعاصرين، ولكن نوجزه فى كلمات بسيطة:

قال الشيخ مخلوف: [الربا (تعنى فى اللغة) الزيادة، وفى الشرع: فضل مال (أى زيادة مال) فى معاوضة مال ما بمال، قلت الفائدة أو كثرت]، وجاء فى «المنتخب فى تفسير القرآن»: [الربا المذكور فى الآية هو ربا الجاهلية: وهو الزيادة فى الديون فى نظير الأجل. وهو حرام فى قليله وكثيره، وقال الإمام أحمد: لا يسع مسلمًا أن ينكره. ويقابله ربا البيوع فى قوله (ﷺ): «البُرّ بالبُرِّ مثْلاً بمثل يدًا بيد، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدًا بيد، والذهب بالذهب مثلاً بمثل يدًا بيد، والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدًا بيد، والتمر بالتمر مثلاً بمثل يدًا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى] رواه البخارى ومسلم.

وإذا كانت الشرائع السماوية[1]، والقوانين الوضعية تسعى دائمًا لتحقيق العدل، فأين هو العدل فى تعامل مالى يضمن فيه طرف ماله، وربحًا محددًا على ماله، بصرف النظر عما يحدث للطرف الثانى، كسب أم خسر؟ أم حتى إذا أفلس؟! الأمر الذى يساعد على تركيز المال فى أيد قليلة.

وليست هناك نظرية فى الاقتصاد أو التمويل تستلزم التعامل بالربا، بل دائمًا ما تسعى البنوك المركزية لخفض الفائدة إلى ما يقارب الصفر لتنشيط الاقتصاد حين يحل الكساد. ولم يخل أى مجتمع فى أى زمن من الأزمنة من نزعات الخير بين أعضائه وتبرعاتهم بأموالهم، فالنزعة الخيرية موجودة دائمًا فى البشر، ويمكن توظيفها فى التمويل والشراكة على أساس الاشتراك فى الأرباح والخسائر، ولكن يُحكم أصحاب رؤوس الأموال ومحترفو التمويل، من مؤسسات إلى بنوك إلى أشخاص سيطرتهم على شعوب العالم وأموالها لمصالحهم الخاصة.

يزعم البعض أن منع الإسلام للربا أو الفائدة هو المسئول عن تأخر العالم الإسلامى، ومن ثم يقول البعض إن الإسلام سبب تأخر المسلمين. وباختصار شديد، السبب الرئيسى لسيطرة قوى الغرب على العالم هو قوة السلاح، واستحلال الحضارة الغربية للآخر، سواء تحت شعار أنها الشعب المختار، الكاثوليك أولاً ثم البروتستانت ثانيًا، أو شعار حمل الرجل الأبيض الذى اعتبر أن مسئوليته قيادة العالم، فاستعمر شعوبه واستحل أراضيه وثرواته وعمله، ودمه إذا لزم الأمر، لمدة ثلاثة قرون، أو شعار الداروينية العنصرية التى تقول بالبقاء

(١) الربا محرم فى الأديان الإبراهيمية الثلاثة، إلا أن العهد القديم يبيح لليهود إقراض الأجانب بالربا، كما جاء فى سفر التثنية الإصحاح٢٣ : ١٩- ٢٠ : لا تتقاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بنى إسرائيل، سواء كانت القروض فضة أو أطعمة أو أى شىء آخر، أما الأجنبى فأقرضوه بربا، إنما إياكم إقراض أخيكم بفائدة.

للأصلح، ولا حرج فى القضاء على العناصر السفلى من البشر، أو استخدامها فيما يليق بسفليتها، ومازال العرض مستمراً[1].

مع العلم بأن كل حكومات العالم الإسلامى تتعامل بالربا.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ

---

(١) ولكن ما الذى جعل الغرب أقوى؟ ذهب التجار العرب إلى أقاصى شرق آسيا، ماليزيا وإندونيسيا وبروناى وجنوب تايلاند وجنوب الفيليبين، فدخلت تلك الشعوب فى الإسلام لما رأته من أخلاق المسلمين، وتلك الشعوب المسلمة يقارب عددها، إن لم يكن يزيد على عدد العرب المسلمين، فهم أكثر من ٢٥٠ مليون مسلم. قارن ذلك بدخول الهولنديين إندونيسيا بعد ذلك، صادروا ربع إلى ثلث إنتاج الأراضى، ومن ليست له أرض سخروه للعمل المجانى ربع إلى ثلث السنة، وقتلوا كل من قام ليدافع عن أرضه، أفراداً وجماعات وقبائل، واستمروا فى ذلك الاستنزاف ثلاثة قرون، فقد كانوا متفوقين بالسلاح، وبالأخطر منه، وهو سلاح استحلال واستباحة الآخر، ولذلك سقط مئات الألوف من الإندونيسيين شهداء فى مقاومة الاستعمار الهولندى. وفى أمريكا، يعلم الجميع كيف استولى غرب أوروبا على أراضى السكان الأصليين، وسخرهم للعمل فى مناجم الفضة والذهب والمعادن، وبعد أن أباد أغلبهم، استرق الأفارقة، ونقلهم عبر المحيط؛ ليعملوا بالسخرة فى المناجم وفى مزارع القطن وقصب السكر، فكان فى ذلك الوقت كمن يضع يده اليوم على آبار البترول، ويسخر عمالة مجانية لها، فكون ثروات هائلة، بنى بها اقتصاده وصناعته، وأهمها وأخطرها صناعة السلاح. وما فعله الغرب فى أمريكا وفى إندونيسيا، فعله فى إفريقيا وفى آسيا، ولنضرب مثلين فقط من مئات الأمثلة: حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت صادرات الصين لبريطانيا أضعاف وارداتها منها، فماذا فعلت بريطانيا العظمى؟ زرعت الأفيون فى الهند وصدرته للصين، فلما اعترضت الصين وصادرت الأفيون، غزتها القوات البريطانية، مع قوات أوروبية وساعدتها الولايات المتحدة بتوجيه تهديدات إلى الصين، وفرضت عقوبات مالية على الصين، واستولت على عدة مدن وموانئ، ومنها هونج كونج، التى استردتها الصين منذ عقد واحد، وعُرفت تلك الحرب بحرب الأفيون. وفى الواقع كررت بريطانيا العظمى حرب الأفيون ثانيًا. والعجيب فى الأمر أن الغرب عرف البارود بعد الصين بعقود طويلة، ولكن الصين لم تستغله فى الصناعات الحربية كما استغله الغرب. والمثل الثانى هو الهند. كانت الهند متقدمة على بريطانيا، وعلى العالم كله فى صناعة النسيج والملابس، فما كان من بريطانيا العظمى إلا أن قضت على الصناعة الهندية، ووصل بها الأمر أنها كانت تستأصل سبابات النساجين الهنود، وتحولت الهند، التى كانت بمثابة ورشة العالم لتصدير القماش والملابس، إلى مستورد لها من مصانع بريطانيا، العظمى!.

الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾

هذه أطول آية فى القرآن، وهى توصى المؤمنين بكتابة ديونهم حتى لا يتنازعوا ولا يختلفوا على قيمتها، وحتى يستوفى الدائن حقه، ولا يدفع المدين أكثر مما عليه، مع استثناء أصحاب التجارة الحاضرة من كتابة الدين. قال بعض المفسرين والفقهاء: إن الأمر للاستحباب والإرشاد، وقال البعض الآخر: للوجوب. والتجارة الحاضرة هى التى يستوفى فيها كل طرف حقه دون تأجيل، مما لا يجعلها مظنة للخلاف.

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ إذا داين بعضكم بعضًا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى حددت مدته، فاكتبوا هذا الدين ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ على كاتب الدين التزام العدل ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ ولا يرفض الذى يعرف الكتابة إذا طلب منه. وتوصى الآية باستشهاد شهيدين من الرجال الذين يرضى الناس عن أخلاقهما ويتوسمون فيهما إصابة الحق فى الشهادة، فإذا لم يتوفر إلا رجل واحد يتمتع بتلك المؤهلات، فيمكن استشهاد امرأتين معه لهما تلك المؤهلات، واقترنت الزيادة إلى امرأتين بدلاً من امرأة واحدة بالخشية من أن تضل الواحدة فتذكرها الأخرى، سواء كان ذلك الضلال سهوًا أو عمدًا، والظاهر من الآية هنا أن المقصود هو الضلال الناتج عن السهو؛ لأنه إذا كان عمدًا ما رجعت الشاهدة المتعمدة للضلال بقول الأخرى. وبذلك تبدو علة اشتراط المرأتين بالخشية من خطأ شهادة الواحدة، فى وقت لم تكن غالبية النساء تقرأ وتكتب، ناهيك عن المتاجرة والتعامل فى الأموال.

وإذا قرنت الآية خشية ضلال المرأة فى شهادات المعاملات والقروض والأموال بأن تصير شهادة المرأتين مساوية لشهادة رجل، فلم يمتد ذلك إلى سائر الشهادات الأخرى للمرأة، وهناك أمور أهم وأخطر يؤخذ فيها بشهادة المرأة الواحدة، مثل الحمل من عدمه، ومثل الإرضاع، بل وللمرأة حق إعطاء عهود الأمان فى حالة الحرب مثل الرجل، وغير ذلك كثير، وتجمعه آية سورة التوبة ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ وقد ذهب بعض المفسرين أن للمرأة تولى رئاسة الدولة بناء على هذه الآية.

وقال شلتوت فى كتابه *الإسلام عقيدة وشريعة*: [وليس معنى هذا أن شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضى، فإن أقصى ما يطلبه القضاء، هو «البينة». وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة فى الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم. ومن ذلك يحكم القاضى بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها. واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد لأن المرأة ـ كما قال الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ: «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل. ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها».

والآية جاءت على ما كان مألوفًا فى شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات ولا يشتغلن بأسواق المبايعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافى الأصل الذى تقضى به طبيعتها فى الحياة. وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون فى بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه.

القضاء بشهادة المرأة

هذا، وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها، وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء فى القضايا الباطنية. وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده، وهى القضايا التى تثير موضوعاتها عاطفة المرأة ولا تقوى على تحملها. على أنهم قد رأوا قبول شهادتها فى الدماء إذا تعينت طريقًا لثبوت الحق واطمئنان القاضى إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معًا. وما لنا نذهب بعيدًا وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل ـ سواء بسواء ـ فى شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقوله شهود:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النور].

أربع شهادات من الرجل يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويقابلها ويبطل عملها أربع شهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين].

* * *

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

وإذا كنتم فى سفر ولم تجدوا كاتبًا، فليكن ضمان الدين رهنًا يأخذه الدائن من المدين يُرد إليه عند رد الدين، وإذا اعتمد أحدكم على أمانة رجل، فعلى المؤتمن رد الأمانة، وليتق الله، وجاء فى الحديث «أدِّ الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك» رواه أبو داود والترمذى.

* * *

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾

تعددت الأقوال فى هذه الآية، فهل يحاسب الله الناس على ما يعتمل فى أنفسهم سواء صدقوه بالعمل، أو أخفوه انتظاراً للفرصة، أو ردوا أنفسهم عن فعله؟ وهل الآية منسوخة بالآية التالية؟.

قال الطبرى: [أولى الأقوال التى ذكرناها بتأويل الآية قول من قال: «إنها محكمة وليست بمنسوخة»، وذلك أن النسخ لا يكون فى حكم إلا بنفيه آخر، وهو ناف له من كل وجوهه، وليس فى قوله: عز وجل ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ نفى الحكم الذى أعلم عباده بقوله ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبة ولا مؤاخذة]، أما مخلوف فقد قال: [وإن تظهروا ما استقر فى أنفسكم مما عزمتم عليه

من السوء أو تخفوه، يجازكم به الله. فالعزم على المعصية والتصميم عليها مؤاخذ عليه، وأما حديث النفس والخواطر الفاسدة التى ترد على القلب دون أن يصحبها عزم وتصميم فمعفو عنها؛ إذ ليس فى الوسع الخلو عنها، وفى الحديث «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به» ـ متفق عليه].

وجاء فى الحديث «من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» رواه البخارى ومسلم.

* * *

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾

آمن الرسول، وآمن المؤمنون، كلهم آمنوا بالله الواحد الأحد وبالملائكة وبصدق الكتب السماوية وبرسالات الرسل جميعًا، لم يفرقوا بين أحد من الرسل فى الإيمان بهم، وقالوا جميعًا لربهم عندما سمعوا كلامه: سمعنا وأطعنا، فاغفر لنا وارحمنا، ونحن على يقين من أننا ملاقو رب العالمين.

تمثل هذه الآية جوهر الإيمان وركنه الركين، وترفع المسلمين عن أى تعصب أو رفض لأىّ من الكتب السماوية أو أىّ من الرسل الكرام، وأتباعهم، تفتح قلوبهم وعقولهم أمام كل الكتب والرسل، وتمنع عنهم أساطير الشعب المختار الدموية، ورفض الآخر والاستعلاء عليه، واستباحته، وأين ذلك من رفض اليهود للمسيح (ﷺ) وإنجيله، ولمحمد (ﷺ) وقرآنه؟ ومن رفض المسيحيين لمحمد (ﷺ) وقرآنه؟.

* * *

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إن الله ـ تعالى ـ لا يكلف أحدًا من البشر أو يطلب منه فوق طاقته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يكتب فى صالحها ما فعلت من خير،

وتحاسب على ما فعلته من شر ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ يُعَلِّم الله ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين كيف يتضرعون إليه طالبين منه فى تذلل وخضوع ألا يحاسبهم إن نسوا أو أخطأوا، واستجاب لهم، فقال رسوله (ﷺ) «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» رواه الطبرانى، ولا يدخل فى ذلك نسيان وخطأ الإهمال أو التهاون أو التفريط أو التقاعس، وما إلى ذلك من إساءة تصرف أعمال لا تستقيم بها أمور الدين ولا الدنيا، وقال الطبرى : [إن قال لنا قائل : هل يجوز أن يؤاخذ الله ـ عز وجل ـ عباده بما نسوا أو أخطأوا، فيسألوه أن لا يؤاخذهم بذلك؟ قيل : إن «النسيان» على وجهين، أحدهما على وجه التضييع من العبد والتفريط، والآخر على وجه عجز الناسى عن حفظ ما استحفظ ووكل به وضعف عقله عن احتماله. وكذلك لـ «الخطأ» وجهان، أحدهما من وجه ما نُهى عنه العبد فيأتيه بقصد منه وإرادة، فذلك خطأ منه وهو به مأخوذ، والآخر منهما ما كان منه على وجه الجهل به والظن منه بأن له فعله] ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ الإصر تعنى الميثاق والعهد وتعنى الثقل أو الحمل، وعلى ذلك يعنى الدعاء ربنا لا توثقنا بالمواثيق الشاقة، وفيه سعى لمد المنهاج الربانى فى التخفيف الذى جاء به عيسى (ﷺ) حسبما بين القرآن فى سورة آل عمران ﴿ ... وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ... ﴾ [الآية ٥٠]، ﴿ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ بسبب رفضهم لآياتك، وتكبرهم وعنادهم وتعنتهم، وقتلهم الأنبياء، ونحن بالتباين عنهم نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ أنت وحدك تعرف ضعفنا البشرى، فلا تبتلينا بما لا طاقة لنا على تحمله ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ تجاوز عن سيئاتنا ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿ وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ارحم ضعفنا، فأنت خالقنا عالم بحالنا، وانصرنا بفضلك على القوم الكافرين.

* * *